

استشعار النعمة وشكرها:

إن بلوغ رمضان نعمة كبرى، يقدرها حق قدرها الصالحون. وإن من واجبنا استشعار هذه النعمة، واغتنام هذه الفرصة، فإنها إن فاتت كانت حسرة ما بعدها حسرة، وأي خسارة أعظم من أن يدخل المرء فيمن عناهم المصطفى بحديثه على منبره في مسألة بينه وبين جبريل الأمين: (من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له، فدخل النار فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين)!! (صحيح الجامع (٧٤))؛ فمن حرم المغفرة في شهر المغفرة فماذا يرتجي؟! ومن ضاعت منه دقائق رمضان فقد خسر غالياً وفرط كثيراً، نسأل الله السلامة والعافية.

وإن استشعار هذه النعمة، وشكر الله عليها، هو مفتاح القبول، فعن عطية بن بسر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه، فإنها نعمة من الله سبقت إليه، فإن قبلها بشكر، وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثماً ويزداد الله عليه بها سخطاً" (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ج (٧٠٢٤)) وضعفه الألباني.

وإن من نعم الله تعالى على عباده إدراك نضجات هذا الشهر ورحماته، فإذا تقبل العبد هذه النعمة بالشكر، واغتنام الشهر في الصالحات، فاز برضا رب الأرض والسماوات، ولم لا ورمضان منحة عظيمة؛ تضاعف فيه الحسنات، وتغظم فيه السيئات، وتفتح فيه أبواب الجنات، وتقبل فيه التوبة إلى الله من ذوي الآثام والسيئات.

تأتي أيام رمضان ليفتح الله برحمته أبواب الأجر والخير على عباده، وتكثر فيه سبل اكتساب الحسنات، مع ما اختص الله به هذا الشهر العظيم من مضاعفة أجور الأعمال الصالحة، فضلاً عن الله عز وجل - وكرماً منه على عباده، فينادي مناد في أول ليلة من رمضان فيقول: «يا باغي الخير أقبل، يا باغي الشر أقصر». (أخرجه الترمذي (٦٨٢)) وصححه الألباني).

وبرغم ما في هذا الشهر المبارك من أعمال صالحات، ورغبة الصالحين في الإكثار من العبادات والدعاء، والتوسع في المعروف، والبذل وتفريج الكربات، إلا أن بعض الناس أرخص لثاليه، وأرهق فيها بصره مع الفضائيات، يعيش معها في أوهام السراب، فإذا انقضى شهر الصيام، خرج بحصيد الهشيم فلا مال فيه جمع، ولا للأخرة ارتفع، ربح الناس وهو الخاسر.

التفريط في المنح الربانية في شهر رمضان .. أسبابه وعلاجه

إعداد: عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، سبحانه وتعالى له
الحمد الإحسان والثناء الجميل، والصلاة
والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.

وبعد... فيتبقي للعبد العاقل أن يتقف مع
أيام عمره وقفة تأمل واعتبار، فيحاسب
نفسه على ما مضى من عمره، ويتأمل في
كيفية انقضائه، وسرعة مروره، ويأخذ
العبرة من قدوم رمضان وتلو رمضان، فالأيام
تتضي، والأعمار تنتضي، وكل إلى داعي
الموت سيصفي راعياً وجيب.

وإن من مواطن التوبة أننا ومع رحيل كل
رمضان صنفنا شهرنا بالأسى لرحيله،
والتمسنا فيه من كل خير ما كان في شهر رمضان
والأسى، وكما شعرنا بكملة نسياننا، وتنا
تتسببنا فيه، ووجدنا في أدركنا رمضان
الانعدام في تقبل على الخطايا، وسنفرج
الوسع في الصلوات وحمل الصالحات، وما كان
استجاب الله دعائنا بكملة، وما كان رمضان
بفعله وكرمه، فماذا نحن من رمضان؟

رمضان ١٤٤٥ هـ - العدد ١٣٣ - السنة الثالثة والخمسون

دقائق الليل غالية

إن الأيام صحائف الأعمار، والسعيد من يخلدها بأحسن الأعمال، وراحة النفس في قلة الأثام، وليالي رمضان واحة المتقين، تجتمع فيه شتات الهموم، وتصفو النفوس ويتوجه العبد للقاء الحي القيوم، والسحروقت شريف، يقترب الله جل وعلا من عباده، لعلهم يتوبون أو يناجون ربهم وينزلون حاجتهم به، ويستغفرونه ويتوبون إليه.

ومع أن كثيراً من المسلمين طوال العام يكونون نائمين في هذا الوقت الشريف، إلا أنهم إذا غمهم رمضان قاموا إلى السحور، فعمروا هذا الوقت بالصالحات فذكروا ربهم، وصلوا ركعتين في جوف الليل، ودعوا ربهم واستغفروه.

وإن السعيد من اغتنم هذا الوقت الفاضل وتقرب فيه إلى مولاه بما يستطيع من الصلاة والدعاء والاستغفار، فعسى أن تصيبه نفحة من نفحات السحر، فيسعد بها سعادة أبدية.

من أسباب خسارة رمضان:

من أراد الله به خيراً حبب إليه الإيمان، وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، فصار من الراشدين، ومن أراد به شراً خلى بينه وبين نفسه، فاتبعه الشيطان، فحبب إليه الكفر والفسوق والعصيان، فكان من الغاوين.

ولذا يجب الحذر من المعاصي، فكم سلبت من نعم، وكم جلبت من نقم، وكم خربت من ديار، وكم أخلت دياراً من أهلها فما بقي منهم أحد، كم أخذت من العصاة بالثأر، كم محت لهم من آثار، وهناك أمور كثيرة إذا اجتمعت على العبد ضيعت عليه رمضان وخرج منه خاسراً لأفضل ما فيه، ومن هذه الأمور:

أولاً: الغفلة عن التوبة وعدم احتساب الأجر

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه" (أخرجه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠))، وعليه فالمسلم العاقل يصوم لله وحده: طلباً لرضاه، واستجابة لأمره، طلباً لثواب الله: (إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي) (أخرجه مسلم (١١٥١)). إذا فالصيام عبادة خفية بينك وبين الله لا يعلم

بها إلا الله، فقد تشرب وتأكّل لا يعلم بك أحد من الناس، ولكن (وما الله بغافل عما تعملون)، فمن صام بهذه المعاني وجد حلاوة الصيام، وشعر بلذة رمضان، فاقدم على الأعمال الصالحة أيها إقدام.

ثانياً: إهمال الصلوات الخمس

وتأخيرها عن وقتها، وأدائها بكسل وخمول

وهذا من أعظم أسباب خسارة رمضان، فمن لم يحرص على الفرائض ولم يقيم بالواجبات، فكيف يرجى منه النوافل، بل كيف يرجى منه استغلال رمضان، ربما صلى الرجل في آخر الوقت الصلاة، ينقرا نقر الغراب، فكيف لمن كان هذا حاله أن يستغل رمضان في طاعة الله والقوز فيه، بل هذا يخشى على صيامه ألا يقبل، والعياذ بالله.

ثالثاً: السهر في غير طاعة

وهو من أعظم أسباب خسارة رمضان، وكيف يرجى لمن سهر طوال الليل في غير طاعة أن يفوز برب رمضان، فتجد أكثر الناس يجلسون طوال الليل مع الأقارب أو مع الأصحاب وتذهب الساعات بالقليل والقال، واللعب، وتتبع القنوات الفضائية، والإنترنت، وربما جلسوا حتى وقت السحر لم يقرأوا حرفاً من كتاب الله، أليست خسارة أن تضع هذه الساعات الطوال من رمضان في كل ليلة بمثل هذا؟

رابعاً: التخمّة بالأكل والشرب عند الإفطار والسحور

فكثرة الأكل والشرب والإفراط في ذلك -فضلاً عن أنه يقسي القلب- يصيب الإنسان بالخمول والتخمّة، فيرغب في النوم، فلا يتلذذ بصلاة ولا يتدبر القرآن، ولا يستطيع القيام، وهذا فيه من الخسارة ما الله به عليم، قال النبي: "ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن بحسب ابن آدم أكالات يقيم صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" (أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وصححه الألباني)، فإذا أراد العبد أن يصح جسمه ويقل نومه فيقلل من الأكل. فإن مما يترتب على كثرة الأكل والسهر: كثرة النوم والخمول والكسل، ولو نام العبد في الليل ساعات لجلس بعد صلاة الفجر يذكر الله، ويقرأ القرآن، وأصبح طوال نهاره طيب النفس نشيطاً. كيف نفوز في رمضان ولا نخسر؟

إذا عرف العبد قدر نعمة الله عليه، وقدرها

حق قدرها، ربح، والعكس بالعكس ولا يظلم ربك أحداً، وإن من المعينات على اغتنام الدقائق الرمضانية الغالية أمور كثيرة، منها ما يلي:

١- تعظيم شعائر الله:

لا شك أن شهر رمضان وصيامه وقيامه من شعائر الله تعالى، وإن رضى المسلم عن ربه تبارك وتعالى، ورضاه بما اختاره له، وفرضه عليه، وتعظيم ما عظمه الله وإقامة حدوده، هو من تعظيم الله، وتعظيم حرمات الله، قال تعالى: **«ذلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ»** (الحج: ٣٠)، وقال تعالى: **«وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ»** (الحج: ٣٢).

وإن من تعظيم الله تعالى في شعيرة رمضان تعظيم حرمات الشهر، ولزوم ما أمر الله بأدائه، واجتناب نواهيه ومحرماته، فإذا كانت الطلعة فيه عظيمة، فالعصية أيضاً خطيرة، قال تعالى: **«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»** (البقرة: ٢٢٩).

وإن تعظيم حرمات الله تعالى واحترام أوامره وامتنالها، ومعرفة نواهيه واجتنابها، لهو طريق إلى الفلاح، وسبيل للنجاح، ودليل على الإيمان، وبرهان على الإحسان، وسبب للفرح.

٢- تلمح الأجر والبصر بالعواقب:

إذا تلمح العبد الأجر فيما يعمل وتبصر بعواقب عمله، دفعه ذلك دفعا إلى اتباع مرضي الله تبارك وتعالى وعدم التفریط في طاعته، وتدبر معي هذا الحديث الجليل عن أبي صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: "كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه". (أخرجه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١)).

وهذا الحديث يدعونا في مواضع منه إلى تلمح الأجر وبيان عاقبة العمل الصالح، فتخيل قوله تعالى (إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به)، وكذا تخيل فرحة الصائم، يفرح عند فطره بأمرين، باستكمال صوم اليوم الذي من الله عليه

بصيامه، وقواه عليه، ويتناول ما أحل الله له من طعام وشراب، ويفرح عند لقاء ربه بما يجده عند ربه مدخرا له من أجر الصيام.

٢- اتخاذ القدوة الحسنة:

إن اتخاذ المسلم لمن سبقوه من الصالحين قدوة حسنة له، لهو من طرق النجاة وسبل الفوز في الآخرة، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، ولذلك يجب أن يلجأ العبد في رمضان إلى سير السلف يقوي عزيمته ويعلي همته، فيطالع سيرهم، وينظر في أحوالهم، كل هذا يدفعه إلى مزاحمة الصالحين، ومتابعة السلف الصالح الذين كانت لهم في رمضان أحوال خاصة مع شهر الصيام، إذ كانوا ينتظرون رمضان بشوق وحنين متخذيته شهر مضمار وسباق إلى الله تعالى، فإذا دخل رمضان كانوا قليلاً من الليل ما يهجون وبالأسحار هم يستغفرون، يبيتون لربهم سجداً وقياماً، فيصبحون شعثاً غبراً صفراً، ولكنهم فازوا بالتعظيم وزيادة.

لقد كان السلف يهتمون بربضان اهتماماً بالغاً، إذ هو شهر الفضائل والمنازل، ويحرصون على استغلاله في عمل الطاعات والقربات، وكانوا سابقين إلى الخير، تائبين إلى الله من الخطايا في كل حين، فما من مجال من مجالات البر إلا ولهم فيه اليد الطولى، وخاصة في مواسم الخيرات، ومضاعفة الحسنات، لذلك نجد أن حال السلف مع القرآن في رمضان حال المستنفر نفسه لا رتقاء المعالي، فهذا الإمام البخاري-رحمه الله- كان إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية، وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن، فيختم عند الإفطار كل ليلة ويقول: عند كل الختم: دعوة مستجابة، وروي عن الشافعي أنه كان يختم في رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ في الصلاة، قال الربيع: "كان الشافعي يختم كل شهر ثلاثين ختمة، وفي رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ في الصلاة". (صفة الصفوة لابن الجوزي (٢٥٥/٢)).

أسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يتقبل منا صالح الأعمال، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



دروس وعبر من رحيل شهر رمضان

أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، سبحانه وتعالى له الحمد الحسن والثناء الجميل، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فينبغي للعاقل أن يقف مع أيام الله-تبارك وتعالى- وقفة مُتأمل، وأن يعتبر بمرورها، فقد أمر ربنا- سبحانه وتعالى- نبيه موسى- عليه السلام- أن يذكر قومه بأيام الله: فقال-تبارك وتعالى-: «وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ أَنَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» (إبراهيم: ٥)؛ أي: وذكرهم بتعم الله عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبتين، ووقائع الكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه، «إِنَّ فِي ذَلِكَ»؛ أي: في أيام الله على العباد «آيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»؛ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة.

أن يتفكر فيها:
الوقفة الأولى: الانتباه لمرور العمر والعذر من الدنيا
إن عمر الإنسان هو كنزه الحقيقي ورأس ماله، وإن تضييعه والتفريط في ساعاته وأيامه من الخسارة والغبن الذي يقع فيه كثير من الناس، وصدق رسول الله- صلى الله عليه وسلم- حيث قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصُّحَّةُ وَالْفُرَاغُ» (صحيح البخاري: ٦٤١٢).
لذلك فمن الأمور المهمة التي ينبغي أن يقف معها العبد مع رحيل رمضان؛ وصية النبي لعبد الله بن عمر- رضي الله عنهما-، فعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال:

والعبد له في أيام دهره نظرات، يتطلع فيها لرحمات الله- تبارك وتعالى-، وينتظر فيها فرجه ومدده وحسن عطائه لمن أطاعه، وصبر على أوامره، وابتعد عن نواهيه، أما الغافل قليل العلم والصبر ضعيف الطاعة والاتباع فهو متبع لهواه غير متفكر في آلاء الله ونعمه، ولا يعمل حواسه في تدبير الكون وعظمته ليحصل اليقين في القلب؛ فتتقاد الجوارح للحق ويحسن حال البدن فيما يرضي الله تعالى.

ومع رحيل شهر رمضان؛ فهذا تذكير ببعض الوقفات السريعة والمهمة التي ينبغي للمسلم



الوقف الثانية: الجمع بين الإحسان والخوف

إن من تأمل أحوال الأنبياء والصحابه والصالحين وجددهم في غاية العمل مع غاية الخوف، فهم جمعوا بين الإحسان والخوف، ونحن جمعنا بين الإساءة والأمن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد كان السلف-رحمهم الله تعالى- يحسنون في أعمالهم، ويتقون الله ما استطاعوا، وهم مع ذلك لا يعجبون بعمل ولا يفتنون بثناء الناس ولا محمده الخلق.

قال ابن القيم-رحمه الله-: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والأخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه: فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة: فإن ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره. وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا كيف؟ قال: يعمل الخطيئة، فلا تزال نصب عينيه، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله، وبادر إلى محوها، وانكسر وذل لربه، وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها، ويتكبر بها حتى يدخل النار» (طريق المهجرتين: ص ١٧٢).

وقد حفلت مرويات السنة وكتبها بالعديد من المواقف الرائعة التي تبين شيئاً من عظمة هذا الجيل الفريد، ولا عجب فالمرابي الأول والمعلم الأعظم لهم هو رسول الله. فقد بين الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد العاقل لا يرتكن على عمل ضعيف لا يدري أقبله الله منه أم لا، وإنما العبد الموفق من يعمل ويعبد ويجد ويعتمد بعد كل ذلك على الطمع فيما عند الله، فلا يدل بعمل ولا يستولي عليه العجب، بل يتواضع لربه لعله يقبل منه، ويخفض جناحه لعل الله يمن عليه بالقبول، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: «سددوا وقاربوا، وأبشروا؛ فإنه لا يدخل أجدا الجنة عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله

أخذ رسول الله بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. (صحيح البخاري: ٦٤١٦). فالنبي-صلى الله عليه وسلم- يوصي عبد الله بن عمر وهو من آخر الصحابة موتاً، يوصي شاباً في العشرين من العمر بقصر الأمل والحذر من الدنيا.

إن من ملامح ختام شهر رمضان أن يتذكر الإنسان خواتيم الأعمال وخواتيم الأعمار، ولا يغفل عما يحمل من الأثام والأوزار، فكل شيء عند الله بأجل مسمى ومقدار، والعاقل من انتبه وأخذ أهبطه، واستعد لسفر طويل، وإقامة طويلة في القبور، فيعمل لهذا اليوم ولا تشغله الدنيا بغرورها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي-رحمه الله- معلقاً على وصية النبي-صلى الله عليه وسلم- لابن عمر: «هذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً، فيطمئن فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يهبط جهازه للرحيل، قال تعالى: يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار»، وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يقول: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها» (رواه أحمد، والترمذي، وقال حسن صحيح).

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».

وقال عمر بن عبد العزيز-رحمه الله- في خطبته: «إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الضلعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضركم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» (حلية الأولياء).



بمغفرة ورحمة، (صحيح البخاري: ٦٤٦٧).
وثبت عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه أنها قالت: قلت: يا رسول الله، الذين يوتون ما أتوا وقلوبهم وجلة: أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، أو لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو يخاف أن لا يقبل منه (رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني).

فهذه أم المؤمنين تظن أن الخائف ذا القلب الوجل هو إنسان أتى من الموبقات والكبائر ما يسخط الله عليه، ومثله يحق له الخوف، بل يجب، فصيح لها النبي- صلى الله عليه وسلم- الفهم، وأرشدنا إلى أن المتقين من عباد الله يجمعون مع الإحسان خوف عدم القبول، وقد خاف إبراهيم الخليل- عليه السلام- ورجا وطمع في القبول، قال تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**، (البقرة: ١٢٧).

وهناك مثل آخر من تواضع السلف، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه في سياق موت عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وهو حديث طويل وفيه: «وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ: فقاتل يقول: لا بأس، وقاتل يقول: أخاف عليه، فاتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه وجاء الناس فجعلوا يئنون عليه، وجاء رجل شاب، فقال: أنشريا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من ضجة رسول الله، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة. فقال عمر: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي» (صحيح البخاري: ٣٧٠٠).

فانظر-رحمني الله وإياك- إلى هذا الجيل جيل الصحابة، يمدح عمر- رضي الله عنه- بأعمال حقيقية عملها، وهو أولى بتلك البشارات في سكرات الموت ليحسن ظنه بربه، ولكنه يأبى في مثل عجيب، ويتمنى وهو الصادق البار أن يخرج منها كفافا، وأحدنا الآن لصلاة ركعات وصيام أيام يظن نفسه

في أعلى الدرجات وأرفع المنازل، فتواضعوا يا أهل الخير، وانظروا في صفحات أعمال السلف الصالح: تعرفوا قيمة أنفسكم، وتصيروا إلى حال أحسن من حالكم: بتوفيق الله تبارك وتعالى.

وهذا مثل آخر طيب فريد رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن لعيد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- قال: أتني عبد الرحمن بن عوف- رضي الله عنه- يوما بطعامه وكان صائما: فقال: قتل مصعب بن عمير وكان خيرا مني، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، وقتل حمزة أو رجل آخر خير مني: فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل ينيكي. (صحيح البخاري ١٢٧٤).

بكي ولم يتناول طعام الإفطار وكان صائما: عندما تذكر أخوة له صالحين سبقوه إلى الله تعالى، ولحسن ظنه بهم فضلهم على نفسه، مع أنه أفضل منهم: فهو من العشرة المبشرين بالجنة- رضي الله عنهم جميعا-.

وهذا صحابي آخر جليل قد لا يعلم اسمه منا إلا القليل، هو عتبة بن غزوان- رضي الله عنه- سابع من أسلم، روى الإمام مسلم في صحيحه عن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإن الدنيا قد أذنت بصرم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصايبها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها: فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فانتزعت بنصفها واتزر سعد بنصفها: فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وعند الله صغيرا (صحيح مسلم: ٢٩٦٧).

يقول: وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيما وعند الله صغيرا، وهو سابع سبعة في الإسلام، رضي الله عن الصحابي الجليل عتبة بن غزوان، ولنتعلم أن رؤية النفس والعجب

بالعمل أصل كل بلية ومجمع الرزايا.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- مع عبادته واجتهاده ومكانته العلمية كان متواضعا هاضما لنفسه، منكرا لذاته، يقول ابن القيم -رحمه الله-: «كان كثيرا ما يقول: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء..» وإن مدحه أحد في وجهه قال: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا» (مدارج السالكين: ٥٢٠/١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- محذرا من العجب بالعمل: «وكثيرا ما يُقرن الرياء بالعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر» (مجموع الفتاوى: ٢٧٧/١٠).

وقال ابن القيم -رحمه الله- موضحا علاقة الصالحين مع ربهم: «المقصود أن العبد يقوى إخلاصه لله وصدق معاملته، حتى لا يحب أن يطلع أحد من الخلق على حاله مع الله ومقامه معه؛ فهو يخفي أحواله غيرة عليها من أن تشوبها شائبة الأغيار، ويخفي أنفاسه خوفا عليها من الداخلة، وكان بعضهم إذا غلبه البكاء وعجز عن دفعه يقول: لا إله إلا الله! ما أشد الزكام!» (مدارج السالكين: ٣٧٤/٣).

وقال أيضا -رحمه الله- في وصف الصالحين وأعمالهم: «فإن العبد الصادق لا يرى نفسه إلا مقصرا، والموجب له لهذه الرؤية استعظام مطلوبة، واستصغار نفسه ومعرفته بعيوبها. وقلة زاده في عينه، فمن عرف الله وعرف نفسه، لم ير نفسه إلا بعين النقصان» (مدارج السالكين: ٢٦٩/٢).

وقال عبد العزيز بن أبي رواد -رحمه الله-: «أدركتهم -أي الصحابة والتابعين- يجهلون في العمل الصالح فإذا فعلوه وقع عليهم الهم أيقبل منهم أم لا» (لطائف المعارف: ص ٢٠٩).

وقال الحسن البصري رحمه الله: «كانوا -أي الصحابة والتابعين- إذا عملوا الحسنة

دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها؛ فما زالوا كذلك على ذلك؛ فوالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة» (كتاب الزهد للإمام أحمد رحمه الله: ٢٣١/١).

الوقف الثالث: علامة القبول

إن حاجة العبد لعبادة الله أكيدة، وهو لا يستغني عن ربه طرفة عين، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «في القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى بحب الله الذي إن حصل للعبد؛ حصل له كل شيء، وإن فاتته؛ فاتته كل شيء، فكما أنه سبحانه الغنى على الحقيقة، ولا غنى سواه، فالغنى به وبجبه هو الغنى في الحقيقة، ولا غنى بغيره البتة، فمن لم يستغن به عما سواه؛ تقطعت نفسه حشرات، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة وحضرة كل سرور وفرح، والله المستعان (طريق الهجرتين: ص ٣٤).

وقال -رحمه الله- مبينا حال الصالحين الصادقين المداومين على الطاعة: «ومن علامات الصادقين التحبب إلى الله بالأنوافل والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة والصبر على مقاساة الأحكام، والايثار لأمر الله، والحياء من نظره، والتعرض لكل سبب يوصل إليه» (مدارج السالكين: ٣٤٦/٢).

وعليه فإن آيين علامة على القبول هي استمرار العبد على الخير والعمل الصالح بعد رحيل شهر رمضان؛ قال بعضهم: «ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بحسنة بعدها كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى. كما أن من عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة كان ذلك علامة رد الحسنة وعدم قبولها».

ما أحسن الحسنة بعد السيئة تمحوها! وأحسن منها الحسنة بعد الحسنة تعقبها، وما أقبح السيئة بعد الحسنة تمحقها





وتعفوها، فلا ترجع أخى إلى المعصية بعد رمضان، واصبر عن لذة الهوى بحلاوة الايمان، واصبر لله تعالى يعوضك خيراً، قال الله تعالى: **(إِنْ يَظَلِّمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوَفِّقْكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)**، (الأنفال: ٧٠).

وتلك قاعدة سنّها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (صحيح البخاري: ٦٤٦٤)، وقالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : «وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه» (صحيح البخاري: ٤٣).

إن استدامة الطاعة والمداومة على الأعمال الصالحة لهي في الحقيقة من عوامل الثبات على دين الله وشرعه، قال تعالى: **(إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)**، (الأحقاف: ١٣)، وإن ترك المحرمات والعمل بما يوعد به المرء من قبل خالقه ومولاه لأمر يحتاج إلى ترويض ومجاهدة من أجل الحصول على العاقبة الحميدة وحسن الفائدة.

الوقفه الرابعة: بماذا نختم شهرنا؟

أمر الله عباده أن يهتموا أعمالهم العظيمة بالاستغفار والتوبة، فبعد كل صلاة استغفار، فعن ثوبان - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أنصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمَنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، قَالَ الْوَلِيدُ فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ كَيْفَ اسْتَغْفَر؟ قَالَ تَقُولُ اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ (صحيح مسلم: ٥٩٢)»**.

والحاج بعد نزوله من عرفة أمر بالاستغفار؛ قال الله تعالى: **«ثُمَّ إِيضًا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** (البقرة: ١٩٩).

بل إن الله - تبارك وتعالى - أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يهتم عمره المبارك بالاستغفار، فقال جل وعلا: **«إِذَا حَآءَ نَصَرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ ۚ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»** (سورة النصر: ١-٣)، وعن

عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: **«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»**، يتأول القرآن (صحيح البخاري: ٧٩٤).

وإن العبد ليتحسر على تفريطه، فبالأمس كنا ننتظر رمضان، وها نحن الآن نودعه، وهكذا تمضي الأعمار، وإنما العبد جملة من أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضه هذا رمضان يمضي، كما كان بالأمس يأتي، فسبحان من قلب الليل والنهار، وأجرى الدهور والأعوام، وفي ذلك معتبر للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

وبعد، فهذا رمضان تطوى صحائفه بأعمال العباد، ولا تنشر إلا يوم القيامة والحساب، ولا ندري أندرك رمضان القابل أم لا؟ فالله المستعان.

وكتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار والصدقة صدقة الفطر؛ فإن صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، والاستغفار يرفع ما تخرق من الصيام باللغو والرفث؛ ولهذا قال بعض المتقدمين: «إن صدقة الفطر للصائم كسجدة السهو للصلاة».

وقال عمر بن عبد العزيز في كتابه: قولوا كما قال أبوكم آدم - عليه السلام - : «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»، وقولوا كما قال نوح - عليه السلام - : «وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ»، وقولوا كما قال إبراهيم - عليه السلام - : «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»، وقولوا كما قال موسى - عليه السلام - : «رَبِّ انِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي»، وقولوا كما قال ذو النون - عليه السلام - : «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (لطائف المعارف: ص ٣٧٧).

أسأل الله العليّ القدير أن يتقبلنا بقبول حسن، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التضرع عند نزول البلاء

إصدار: أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

تعرض الأمة المسلمة في الآونة الأخيرة إلى شدائد ومحن وابتلاءات متعددة، من انتشار الموبقات والمجاهرة بالمعاصي، واعتداء اليهود على المستضعفين في غزة، وخطورة الكافرين، وشعور المسلمين بالضعف والهوان، وعدم استعلائهم بإيمانهم. وهذا يذكرنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أَمَّتْكُمْ هَذِهِ جَعَلَ عَاقِبَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا، وَتَجِيءُ فَتْنَةٌ فَيَرْقُبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مَهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْحُزَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُوتَى إِلَيْهِ.....".

وفي الحديث: دلالة من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث أخبر ببعض ما سيقع من الفتن والمحن. وما يصيب الأمة من ابتلاءات في آخر الزمان. وإذا ابتلي المسلمون من عدوهم، وحلت بهم القوارع، وأصابتهم الفتن والمحن، فليس لهم إلا الأخذ بالأسباب المادية لدفع الهوان، والتضرع بين يدي الله تعالى ليرفع عنهم ما نزل بهم من عدوهم. وإن من الحقائق الثابتة عرفًا والمقررة شرعًا:

افتقار الخلائق إلى الله-تبارك وتعالى-! فالخلاق لا غنى لهم عن رحمة الله بهم وتدبيره لهم وستره عليهم طرفه عين. وكذا فإن حاجة الخلق إلى معرفة ربهم - سبحانه وتعالى-، والإيمان به ومحبته، أشد من حاجتهم لطعام وشراب ومال، فإن كل ما يتعلق به الناس يفنى ويذول، ولا يبقى للعبد على الحقيقة في دنياه وآخره إلا الله الواحد الأحد: الذي يُدبر أمره، ويُنزل رزقه، ويكشف كربه، ويعافيه، ويحوطه من كل ما يؤذيه.



ذو القعدة ١٤٤٥ هـ - العدد ٦٢٥ - السنة الثالثة والخمسون

سبيل النجاة:

من أفضل أحوال العبد في سيره إلى الله- تبارك وتعالى:- شعوره بالافتقار التام إلى ربه الجليل، وبيقينه أنه لا يكشف الضر عنه إلا هو، ولا يأتيه بالخير سواه، وهذا يدفعه إلى الاستسلام التام لربه سبحانه، وهذا من كمال توحيده وتمايم إيمانه، وسلامة قلبه، قال الله تبارك وتعالى: **«وَأَنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكْ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»** (يونس: ١٠٧).

وان من أعظم أسباب جلب النفع ودفع البلاء ورفع العذاب: تضرع العبد لربه- جل وعلا-، واستشعاره التام الفقر إليه وحاجته إليه، والرغبة فيما عنده من الخير، واللجوء إليه وحده بالدعاء والاستغاثة، وتعظيم الرجاء والأمل في رفعه للضر الذي نزل به.

مفهوم التضرع:

التضرع هو: التذلل والمبالغة في السؤال والرغبة، وقال الراغب: التضرع: إظهار الضراعة. قال صاحب البصائر: معناه يتذللون في دعائهم إياه والدعاء تضرع: لأن فيه تذلل الراغبين، قال: وقوله تعالى: **«ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا»** (الأعراف: ٥٥) أي مظهرين الضراعة وهي شدة الفقر إلى الله تعالى وحقيقته الخشوع. قال المناوي: الضراعة: الخضوع والتذلل. والتضرع: أن تدعو الله- عز وجل- بضراعة. (التوقيف على مهمات التعاريف (٢٢٢). نقلًا عن موسوعة نضرة النعيم (٢٦٦٣/٧) بتصرف يسير).

الصدق في التضرع والدعاء:

لقد أخبر ربنا سبحانه في القرآن العظيم أن التضرع والدعاء الصادق يرفع العذاب ويرد البلاء، فقال عن الأمم السابقة: **«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣، ٤٢)»** (الأنعام: ٤٢، ٤٣): فالغاية من أخذ العباد

وعلى الرغم من شدة حاجة العباد إلى ربه سبحانه، وافتقارهم إلى فضله وإكرامه، وعدم استغنائهم عنه طرفة عين؛ إلا أن الملاحظ أن كثيرًا من البشر قد أصرصوا عن عبادة الله تبارك وتعالى، ونفروا عن طاعته وهم أحوج شيء إلى رضاه والقرب منه.

وإن من السنن الربانية التي استفاضت بها الأدلة الشرعية إيضاحًا وإقرارًا: أن الله تعالى لا يعذب الأمم بمجرد ارتكاب الذنب والوقوع في الإثم، بل من رحمة الله تعالى أن العذاب والإهلاك لا يصيب الأمم والأفراد إلا بعد استيفاء مراحل متعددة؛ يتجلى فيها حلم الله، وعدم معاجلته للأمم بالعقوبات، فإذا استقامت الأمم على النهج القويم وقاب الناس غفر الله لهم الزلات، وأمدهم بعطائه، وتولاهم بحفظه، كما حدث مع قوم يونس عليه السلام، قال الله تعالى: **«فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً أَمْنَتْ فَنَنْقُضَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَا أَمْنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ»** (يونس: ٩٨).

وأما إذا ما خالفت الأمم ونقضت العهد وأصررت على مخالفة المنهج الحق، والاستمرار على الفي، والتمادي في الباطل؛ فعندها يتنزل عليهم العقاب ويحل عليهم السخط، قال تعالى: **«فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»** (العنكبوت: ٤٠).

وإذا حل الابتلاء ونزلت العقوبات فلا سبيل لرفعها إلا بالتضرع والالتجاء إلى الله رب العالمين، ونظرًا لأهمية التضرع والإلحاح ودوره في التقرب من الله تعالى، وكثرة ذكره في القرآن العظيم في مواضع رفع البلاء ودفع العقوبات فسنتلي عليه مزيدًا من الإيضاح.

بالبأساء والضراء أن يضرعوا إلى الله، ويرجعوا إليه، قال ابن القيم- رحمه الله:- "قاله يبتلي عبده ليسمع تضرعه ودعائه والشكوى إليه، ولا يحب التجلد عليه، وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه، وتذلل له وإظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره، فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه، وعليك بالتضرع والتمسك وابداء العجز والفاقة والذل والضعف، فرحمته اقرب إلى هذا القلب من اليد للضم". (كتاب الروح ص ٢٠٦).

عواقب الغفلة عن التضرع في أوقات الرخاء:

لقد عاب الله على قوم لا يتضرعون إلا عند حلول النكبات، فإذا نجاهم الله، وأجاب سؤلهم أعرضوا عن شرعه، وشكروا غيره، **«قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون»** (الأنعام: ٦٤، ٦٣).

قال الشنقيطي: "شارحاً قوله تعالى: **«وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً»**، بين جل وعلا في هذه الآيات الكريمة: أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر، أي اشتدت عليهم الرياح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك- ضل عنهم. أي غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون الله جل وعلا، فلا يدعون في ذلك الوقت إلا الله جل وعلا وحده، لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده جل وعلا، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم الله وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. كما قال تعالى: **«فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً»** (الإسراء: ٦٧). (أضواء البيان ١٧١/٣).

إن العباد قد يغفلون في أوقات الرخاء عن عبادة التضرع وصدق اللجوء إلى الله،

واستشعار حاجتهم وفقيرهم التام إلى ربه، ولكن لا ينبغي لهم أن يغفلوا عنها في أوقات البلاء والمحنة، ولو أنهم غفلوا في الحالين لعرضوا أنفسهم لعقوبة الله، فإن أسوأ أحوال العبد أن تغرّه النعمة ويزين له الشيطان الفرح والبطر بما أوتيته من نعم متتالية، فيغفل عن شكرها، وعندها تحل عليه العقوبات، قال تعالى: **«فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٥) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين»** (الأنعام: ٤٤، ٤٥).

وهذا من إهمال الله- سبحانه وتعالى- للأمم السابقة؛ ففي أول الأمر أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلما لم يتضرعوا وقست قلوبهم حلت ووقعت عليهم العقوبة، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، استدراجاً من الله- سبحانه وتعالى- لهم.

شان بين حال من تضرع وحال من أبي:

ولقد أخبر الله تعالى عن أقوام ابتلاهم وتوعدهم بالعذاب فاستكان بعضهم وتضرع إلى الله فكشف الله عنهم عذاب الدنيا، وأخبر عن آخرين ابتلاهم وتوعدهم لكنهم تكبروا وتجبروا وما استكانوا ولا تضرعوا فأخذهم العذاب.

أما الأولون الذين تضرعوا فمنهم قوم يونس عليه السلام الذين قال الله عنهم: **«فلولا كانت قرية آمنت فنفخنا إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتغناهم إلى حين»** (يونس: ٩٨)؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن قوم يونس خرجوا إلى الطرقات واصطحبوا نساءهم وأطفالهم ودوابهم ودعوا وجأروا إلى الله، وقيل: إنهم ظلوا على هذه الحالة أربعين ليلة وهم يستغيثون ويتضرعون ويدعون ويكون ويستغفرون فكشف الله- تبارك وتعالى- عنهم العذاب في هذه الحياة الدنيا، وهذا من فضل الله- سبحانه وتعالى- ومن سعة رحمته.

أما الآخرون الذين لم يظهروا الفقر

والضراعة؛ فقد قال عنهم: «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» (المؤمنون: ٧٦). (٧٧).

سادة المتضرعين:

لما كان التضرع إلى الله تعالى بهذه المكانة؛ كان أحرص الناس عليه الأنبياء والرسل، وإن تضرع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والتجاؤهم إلى الله سمة بارزة في سيرتهم العطرة حين نزل بهم البلاء واشتد عليهم الكرب. فكان نداء نوح عليه السلام ربه أن ينجيه وأهله من الكرب العظيم، كما كان التجاء إبراهيم عليه السلام إلى الله وحده أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى زوجته وولده. واقتدار أيوب عليه السلام أن يكشف الله ما نزل به من ضر. واستغاثة يونس عليه السلام في ظلمة جوف الحوت وقاع البحر أن ينجيه من الغم، كما كانت شكوى يعقوب عليه السلام لله وحده: «قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (يوسف: ٨٦).

ومن طالع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، يجد أنه كان دائم التضرع إلى الله تعالى، فكان من أكثر دعائه، "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين". (أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٠٥) والحاكم (٢٠٠٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين). حسنه وصححه الألباني.

لم يكن النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وحده من يتضرع إلى الله تعالى في وقت الشدة والمحنة والنوازل، بل كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يتضرعون إلى الله تعالى أيضًا ويستغيثون به، ويسألونه النصر والتأييد، وكتاب الله تعالى يؤكد ذلك ويؤيده: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّكُمْ بِالْفِئَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ» (الأنفال: ٩)، قال الطبري رحمه الله: "ومعنى قوله: «تستغيثون ربكم»:

تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم". (تفسير الطبري ٤٠٩/١٣).

فمع تضرع والتجاء الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى في كل أحواله، إلا أن شدة تضرعه وانكساره وإلحاحه على ربه باستجابة دعائه كانت في وقت الحروب والأزمات، ففي غزوة بدر الكبرى أكثر الرسول الكريم من التضرع إلى الله والإلحاح بالدعاء إليه سبحانه، ففي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب قال: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةُ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقَبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ أَتَ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ مَا دَامَ يَدِيهِ مُسْتَقْبِلَ الْقَبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشِدُكَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ سَيَنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّكُمْ بِالْفِئَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ» (الأنفال: ٩)، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ". (أخرجه مسلم (١٧٦٣)).

فما أجدرنا أن نتأسى بنبيينا صلى الله عليه وسلم في التضرع ودوام اللجوء إلى الله سبحانه في كل وقت وحين. وإن الأمة المسلمة اليوم بعدما نزل بها من بلاء وتعاضلت عليها الخطوب لهي في أشد الاحتياج إلى استمطار رحمت الله، وفتح أبواب السماء، بالدعاء الصادق، والتضرع الخاشع لله رب العالمين، ولذا شرع للأمة القنوت في الصلوات الخمس في النوازل للدعاء والرجاء والتضرع وإظهار الفاقة والضعف والحاجة إلى رب العالمين واستئزال نصره وطلب رفع البلاء. نسأل الله أن يرزقنا التضرع إليه، وأن ينصر الأمة ويعزها، والحمد لله رب العالمين.

أفلا يتدبرون القرآن

الحمد لله رب العالمين، سبحانه وتعالى له الحمد الحسن والثناء الجميل، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا شك أن أروع الأوقات في حياة المسلم هو الوقت الذي يخلو فيه بالقرآن العظيم، يتدبر آياته، وينهل من حكمه، ويملاً وجدانه بمواعظه، ويعالج روحه بالتأمل في معاني القرآن العظيم، فيجلو قلبه برقائق القرآن؛ هذا الوقت النفيس هو أجمل أوقات المسلم؛ إذ تتمدّد مطالعة آيات القرآن بالزاد الإيماني الذي يُعينه على مواصلة الحياة، ومواجهة تكادها وآلامها، ويزيد به يقيناً في الله -تبارك وتعالى-، ويدفعه إلى الاستمرار في طريق الطاعة، والمداومة على مجالس الذكر، ويشعر بالاطمئنان التام بذكر الله -تبارك وتعالى-، فلا تتناوشه الظنون، ولا تهلكه الأهوام، ولا تتسلط عليه الشياطين.

أعداد: **عبد العزيز مصطفى الشامي**

مفاخر الإعراض عن القرآن:

والذي يتأمل في أحواله وفي واقع كثير من الناس من حوله، يلمس عن قرب هجر كثير من المسلمين للقرآن العظيم؛ تلاوة، وتدبراً، وتحاكماً إليه، وعملاً به، حتى صار القرآن غريباً في مجتمعات المسلمين إلا من رحم الله -عز وجل-، وأصبح القرآن في بعض أوجه حياتنا علامة على الموت والمصائب؛ فإذا مات أحد المشاهير أقلت القنوات عن المسلسلات والأفلام، وإذا عت آيات القرآن ليلاً ونهاراً، وإذا رأيت نقراً من الناس جالسين في مكان ما وهم يستمعون القرآن؛ فهذا عزاء متوفى.

وبالتالي غاب القرآن عن البيوت والشوارع والسيارات، حتى صار مجرد محطة لأخذ البركة في الصباح، لمدة وجيزة، ثم ينكب الناس في بيوتهم وسياراتهم على سماع ما يريدون من القنوات والمسلسلات والأفلام.

وقد حذر ربنا -سبحانه- عباده من هجر القرآن العظيم، فقال -جل شأنه-: **«وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا»** (الفرقان: ٣٠)؛ شكوى مرة إذ كيف للناس أن يعرضوا عن

القرآن وهو قوت القلوب، وفيه شرح الصدور، وفي اتباعه النور والهداية؟! قال السعدي -رحمه الله-: **«وقال الرسول، منادياً لربه وشاكياً له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: «يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي» الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم. اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه، والاقبال على أحكامه، والمشي خلفه»** (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، ص ٥٨٢).

وذم الله سبحانه قوماً أعرضوا عن القرآن، وشجعوا غيرهم على الإعراض عنه، وعدم الاستماع إليه، فقال سبحانه: **«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلَبُونَ»** (فصلت: ٢٦)، وإذا كان هذا هو حال المشركين الأوائل، في الصّد عن القرآن وهجره وتفسير الناس منه؛ فما أشبه الليلة بالبارحة!

فقد بزغ من أمتنا- وللأسف- قومٌ من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا اتهموا القرآن وسوره وآياته بتفريخ العنف، والدعوة إليه، ونفروا الناشئة من التزود منه، وشجعوهم على الإقبال على الفنون، حتى صارت برامج اكتشاف المواهب للأطفال وشباب المسلمين كثيرة، تشجعهم على إتقان الموسيقى والرقص والغناء والألعاب، وتشجعهم على هوايات فارغة المضمون، لا تبني أمة ولا تصلح فرداً، بل تزيد من الغثائية والخواء في نفوس الشباب والأطفال والبنات، حتى صار هم كثير من أبناء المسلمين الاقتداء بقلان أو إعلان من الممثلين والمطربين، واللاعبين، وتم تغيب جيل كثير من أبناء المسلمين عن حواضن القرآن ودور التربية القرآنية التي تنشئهم على الفضائل والمكارم، وتغرس في نفوسهم معالم الأيمان.

تلاوة القرآن .. تجارة لن تبور:

كل صاحب تجارة أو عمل يخشى أن يأتي عليه يوم تكسد فيه تجارته، أو يخسر فيه رأس ماله، أو يعزل من وظيفته، فإذا لم تزل عنه وظيفته أو تجارته، زال هو عنها يوماً ما وتركها لمن بعده؛ وتلك سنة الله في الخلق أن لا بقاء ولا دوام لشيء إلا لله ذي الجلال والإكرام.

فإذا كان الإنسان يحرص كل الحرص على استمرار دخله وتنمية تجارته، وكثرة ماله، فإن الله سبحانه يخبر عباده أن التجارة الباقية التي لا تكسد ولا تخسر بل تنمو وتزدهر هي العمل الصالح وثوابه، وذكر ربنا سبحانه ثلاث تجارات وأخير أن ثوابها ينمو ويبقى، وبدأ بتلاوة آيات القرآن الكريم قبل الصلاة والصدقة، رغم أن الصلاة والزكاة ركنا الإسلام الأعظم بعد الشهادة لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة؛ وهذا يدل على أهمية تلاوة القرآن الكريم وتدبر آياته، فقال تبارك وتعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ» (فاطر: ٢٩-٣٠).

قال الحافظ ابن كثير: "يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به،

ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والانفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية، **يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ**، أي: يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله، كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة، ولهذا قال تعالى: **لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**، أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، إنه غفورٌ أي لذنوبهم «شكورٌ» للقليل من أعمالهم قال قتادة: كان مطرف-رحمه الله- إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء". (تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٦٦٨/٣)

وأرشد النبي -صلى الله عليه وسلم- أُمَّتَهُ إلى عظم أجور قراء القرآن، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ». (السلسلة الصحيحة: ٣٣٢٧).

فما أجهل الإنسان وأخسر صفقته عندما تضيع زهرة عمره دون مطالعة القرآن العظيم وتدبر آياته وتأمل مواعظه وحكمه، رغم هذا الأجر العظيم في تلاوة كلام الله تعالى!!

وفي توجيه بليغ وتصوير رافع قريب من تصوير القرآن للتجارات التي لا تبور: يُقَرِّبُ النَّبِيَّ-صلى الله عليه وسلم- ذات المعنى لأصحابه فيخبرهم أن تلاوة القرآن وحفظه، وتدبره خير من متاع الدنيا الفاني.

فالأولى بالمسلم أن يغدو إلى مصحفه أو شيخ متقن، لتعلم تلاوة القرآن، ليقبل عليه سليم التلاوة صحيح القراءة، متقناً له ليحظى بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم للمتقن للتلاوة أو يكون ضمن الصنف المجتهد الملازم لثغر القرآن لكي يتعلمه ويتقنه، فعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران». (أخرجه البخاري ٤٦٥٣، ومسلم: ٧٩٨).

كُلُّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ بِقَلْبٍ وَاعٍ وَصَدْرٍ مُنْشَرَحٍ يَسْتَشْعِرُ حِلَاوَةَ كَلَامِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَتَمْتَلِئُ رُوحُهُ بِالنُّفَّةِ الْيَقِينِ فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَقَدْ حَثَّ اللَّهُ الْجَلِيلُ عِبَادَهُ عَلَى التَّزْوُدِ وَالنَّهْلِ مِنْ دَرَرِ الْقُرْآنِ وَلَمْ لَا وَهُوَ **(كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)** (هود: ١)، كِتَابٌ عَظِيمٌ أَنْزَلَ مِنَ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هِدَايَةً لِلْعَالَمِينَ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الْقَائِلُ: **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)** (الإسراء: ٩).

وهذا القرآن الكريم يسره الله للمسلمين ليقرؤوه وينتفعوا بآياته، ولا يتم هذا الانتفاع إلا بتدبر أحكامه، ولذا أخبر الله عباده أنه أنزل القرآن مبارك، مملوء بمعاني مباركة، يفيض بالبركات والنضجات الطيبات والمعاني الواضحات على من تأمله وتدبره، وقرأه متأملاً في معانيه، فقال تعالى: **(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)** (ص: ٢٩). قال ابن كثير رحمه الله: "أي: ذوو العقول وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصري: والله ما تدبره بحفظ حروفه واضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم" (تفسير ابن كثير: ٦٣/٧).

يقول العلامة السعدي رحمه الله: "يا أمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم، وذلك فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال: وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: **(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ**

أُولُو الْأَلْبَابِ)، وقال تعالى: **أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**..

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فتدبر الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**، أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً". (تفسير السعدي، ص ١٨٩).

وقد ذم الله قومًا لا يتدبرون القرآن العظيم، فقال جل وعلا: **(أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)** (محمد: ٢٤)، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في قوله تعالى: **أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**، "أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بإداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير، ولا تفهم قرآن.

وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: **(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَايَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا)** (الكهف: ٥٧)، وقوله تعالى: **(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَايَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)** (السجدة: ٢٢). ومعلوم أن كل من لم يشغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهمًا يقدر به على التدبر، وقد شكنا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى: **(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)** (الفرقان: ٣٠).

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له، من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.



ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة. وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل؛ وهو مخالفات لأقوال وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالفات لأقوال الأئمة الأربعة". (أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي: ٧- ٢٥٦- ٢٥٧).

وقد مدح ربنا سبحانه أقواماً من المسلمين: آمنوا بنبيهم وأيدوه ونصروه. واستقاموا على الحق الذي جاء به. وانتفعوا بهدايات القرآن العظيم، فقال سبحانه: **(فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** (الأعراف: ١٥٧).

ولم يكن ينفعهم هذا المدح وهذا الاتباع للقرآن الكريم إلا لأنهم تدبروه وفهموا مقاصد الخلاق العليم من كلامه سبحانه، فتعلموا القرآن وتدبروا آياته، ولذلك استحقوا المدح والثناء.

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن خير الاجتماعات وأفضل المجالس هي تلك التي تعقد من أجل تدبر القرآن العظيم وتدارس أحكامه، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "... وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده" (أخرجه مسلم ٢٦٩٩)؛ فبين الرسول صلى الله عليه وسلم فضل الاجتماع لتلاوة كتاب الله تعالى، وأنه أحد السبل لتدبره وتفهم معانيه، ولذا كانت هذه الإحاطة بالملائكية العلوية بهذا الجمع الطيب المبارك.

ومن دقيق فهم الصحابة الكرام لأهمية تدبر القرآن وتدارسه، وأنه وسيلة مهمة لاستيعاب وفهم العلوم الشرعية ما ثبت عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: "من أراد العلم فليثور القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين" (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ١٨٠٨).

لقد كان السلف الصالح -رضي الله عنهم- يعظمون حملة القرآن ويجلون العاملين به، الفاهقين لمعانيه، المتدبرين لآياته، كيف لا وقد

عظمهم الله تعالى بقوله: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)؛ فدل على أن أعظم العلوم هو تعلم كتاب الله تعالى، وبهذه العناية بالقرآن الكريم: تلاوة وتدبراً وعلماً وعملاً، حظي جيل السلف الصالح بالنصر والتمكين؛ لأنهم عرفوا مراد الله في كتابه، فعملوا به، وفقهوا كتاب الله على مراد الله ومراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فطبّقوه، وحكموه فيما بينهم، وتحاكموا إليه، ولهذا قادوا الأمم وختاماً..

فإننا لو أردنا أن نوجز المعاني التي قصدناها في هذه المقالة القصيرة نقول:

- القرآن كلام الله تعالى وهو كتاب عزيز، خير الكتب وأجلها، وأعظم الكلام؛ لأنه كلام الله المتعال.

- أجل أوقات المسلم هو وقت الخلوة بالقرآن للتلاوة والتدبر والحفظ والتأمل.

- الإعراض عن القرآن الكريم فاش في الأمة، وابتعاد شباب الأمة عن القرآن صار ظاهرة كبيرة لا ينكرها إلا جاحد أو معاند.

- تلاوة القرآن تجارة عظيمة الربح غزيرة الأجور، نافعة مباركة على العبد في دنياه وآخره.

- تدبر القرآن والانتفاع بمواعظه وفهم جملة وتبين مجمله وأحكامه، من أفضل أعمال العبد المسلم بعد توحيد الله وأداء الفرائض.

- الغاية الأساسية من مدرسة القرآن استخلاص المعاني، وتبين منهج القرآن في شتى المجالات، وتطبيق نصوصه وأحكامه.

- تدارس القرآن وتدبره مفتاح لاستخراج الكنوز القرآنية، وتلاوة القرآن بالتدبر والوعي أفضل من سرعة التلاوة بلا فهم لكلام الله تعالى.

إن الأمة المسلمة اليوم؛ شبيهاً وشباناً رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، بحاجة ماسة إلى تلاوة القرآن وتدبره، والانتفاع بنوره، والاستهداء بهداياته، والاستمسك بالنور الباقي والحق المطلق، والتعلق بحبل الله تعالى، وتأمل دقائق القرآن والاسترشاد بنوره وهديه، فهذا مفتاح للسعادة ونور حقيقي للعبد في الدنيا والآخرة.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته. والحمد لله رب العالمين.

أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه !!

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فليس من عجب أن يتحَبَّب العبد إلى ربه وسيدِه ومولاه، ومن لا غنى له عنه طرفَة عين ولا أقل من ذلك، ولا عجب أن يتذلل العبد بين يدي سيده، ويدعو ربه ويرجوه، فكل خير أصابه فهو من الله وحده، وكل شر صرف عنه: لم يصرفه عنه إلا هو تبارك وتعالى. ولكنَّ العجب كلَّ العجب في توالي نعم الرحيم الودود على عباده مع تقصيرهم، وكثرة الآثمة مع إعراض كثير منهم، وتتابع برّه بخلقه على ظلمهم، وعظم تحبُّبه إليهم مع إحاطته بهم، وقدرته عليهم، وإطلاعه على نقصهم وزللهم، ولا معنى لذلك إلا سعة رحمته وعظيم لطفه بخلقه، وحلمه عليهم، وصدق الله الرحيم: **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** (الرعد: ٦)؛ يقول السعدي: "أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه ويرد وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شرهم وعصيانهم إليه صاعداً. يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم لأنه يحب التوابين، ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب ليظهرهم من المعائب". (تيسير الكريم الرحمن: ص ٤١٣)

وإن الذي يتأمل في واقع الناس في الآونة الأخيرة يلحظ انكباب كثير من البشر على مخالفة أوامر الله-تبارك وتعالى، والإعراض عن شرعه ووحيه، وعدم اتباعهم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، كل هذا وهم في نعم سابقة، وصحة وعافية، وستر وأمن، فلا يعاجلهم ربهم -سبحانه- بالعقوبة إثر ذنوبهم مع قدرته سبحانه على ذلك، وإنما يمهّلهم لإتمام آجالهم المضروبة، ويمدّ لهم لعلهم يؤوبوا ويرجعوا إلى رشدهم، فلا يؤاخذهم بذنوبهم فور وقوعهم فيها، وإنما يحلم عليهم ويصبر عن أخذهم وهم في ظلام العصيان، ويؤخرهم لعلهم يرجعون عن غيهم، أو يقيم عليهم حجة الإعراض والجهود، وعندها تنقضي سنة إمهالهم، فما أحلم الله على خلقه! وما أصبره عليهم!

كثرة من الله على خلقه:

والمتدبر في آيات القرآن العظيم يطالع عظيم منة الله- سبحانه- على خلقه، ورحمته بهم، وإرادته بهم الخير، فيقول-جل جلاله- مخاطباً البشر بعمومهم، متحسباً إليهم، فاتحاً لهم أبواب رحمته، فيقول سبحانه **رَبُّدُ اللَّهِ لِيَسِّرَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ**



إعداد: أ. عبد العزيز مصطفي الشامي



عَنْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَنْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَالُوا مِنَّا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَرَى اللَّهُ أَنْ يَخْفَظَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ حَسْبًا (النساء: ٢٦-٢٨).

قال السعدي: "وقوله: «والله يريد أن يتوب عليكم» أي: توبة تلم شعنكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم. ويريد الذين يتبعون الشهوات» أي: بميلون معها حيث مالت ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم. من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً، أي: أن تنحرفوا عن الصراط المستقيم إلى صراط المغضوب عليهم والضالين؛ يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرونكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين؛ وتخيروا أحسن الطريقتين.

«يريد الله أن يخفف عنكم» أي: بسهولة ما أمركم به وما نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كالهيئة والدم ونحوهما للمضطر، وكنز الزوج الأمانة للحر بتلك الشروط السابقة. وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، بضعف البنية، بضعف الإرادة، بضعف العزيمة، بضعف الإيمان، بضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته". (تفسير السعدي: ص ١٧٥)

وأثار رحمة الله -تعالى- تتجلى لعباده، معلنة لهم عن عظيم حلم الله -تبارك وتعالى- عليهم، وعدم مسارعته -سبحانه- إلى عقابهم، والصبر عليهم ليتوبوا وليؤوبوا إلى خالقهم وبارئهم، فقال سبحانه: «وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِ مَا تَرَكَهُم مِّنْ ذَنبٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَدَّدٍ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

لَا يَسْتَجِيبُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِينُونَ» (النحل: ٦١).

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة، لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يقوته شيء أراد". (أضواء البيان ٣/٣٨٩).

وقال جل وعلا: «وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مَا تَرَكَهُم مِّنْ ذَنبٍ وَلَٰكِن يُّؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَدَّدٍ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَدِيدًا مُّسِيرًا» (فاطر: ٤٥).

قال ابن كثير: "ثم أخبر تعالى أنه لو لا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة». وقال تعالى في الآية الكريمة: «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم» أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف". (تفسير ابن كثير ٢/٦١٠).

دعوة القرآن الكريم إلى الاستغفار:

ومن الآيات الجامعة التي تفتح باب المغفرة والرحمة أمام المذنبين، قول الله تعالى: «وَلِلَّهِ يَتَوَلَّى الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (الزمر: ٥٣)؛ ففتح الله أبواب الأمل أمام عباده وأغلق أمامهم أبواب القنوط واليأس، وأخبرهم أنه يغفر الذنوب جميعاً لمن شاء، فمهما عظمت ذنوب العبد، فإن مغفرة الله ورحمته أعظم منها، بل ومن كل شيء، فلا ينبغي أن يقنط أحد من رحمة الله تعالى، ولا ييأس من عفو ومغفرته أبداً.

وعن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسن ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؟ فنزل: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك



يلق أناماً، ونزل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" (صحيح مسلم ١٩٣).

وقال الغفور الودود: «لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَكُمْ تَرْحُمُونَ» (النمل: ٤٦). وهذه الآية وإن كانت في قوم صالح عليه السلام؛ إلا أن العبرة بعموم اللفظ وليست بخصوص السبب، فهي دعوة إلى استمطار الرحمة واستفتاح أبواب المغفرة بالاستغفار، وطلب العفو والصفح من الجليل سبحانه، وأرشد الله عباده إلى أن هذا الاستغفار هو سبيل الفوز برحمة الله تعالى.

وقد أمر الله الجليل سبحانه عبده ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن ينبئ عباده، وينقل لهم رسالة سامية ودعوة لولوج أبواب المغفرة، فقال جل وعلا: «يَا عِبَادِيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (الحجر: ٤٩)؛ قال السعدي: "أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة، «أنا الغفور الرحيم» فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سغوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته" (تفسير السعدي: ص ٤٣١).

ومن الآيات الداعية إلى التوبة المحفزة إليها، قوله جل وعلا: «فَمَنْ أَتَعَفَّوْا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عِنْدَ رَبِّكَ أَلَسْتُمْ عَلَيْكُمْ قَدَرًا ۚ وَتَذَكَّرُوا بِأَمْوَالِ اللَّهِ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» (نوح: ١٠-١٢)؛ فيها له من كرم وجوده؛ فإنه إذا تاب العبد من ذنبه الذي اجتريته يدا: يأتي الاستغفار الصادق ليحول قحط حياته، ودفاف روحه، ويؤسه وشدائده إلى خيرات متتابعة، وظلال وارفة. ونعم متتابعة، فما أرحم الله بعباده عندما وسع لهم أبواب رحمته ويسر لهم التوبة وقبلها منهم. وأخبر سبحانه أنه يغفر لمن تاب إليه وأقلع عن ذنبه، فقال تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (آل عمران: ١٣٥).

وفي نداء يديع يخاطب الله من ادعوا كذباً وزوراً أن لله ولداً، وهو سبحانه منزّه عن الصاحبة

والولد، ومع ذلك دعاهم إلى التوبة والاستغفار، وذكر لهم أنه يغفر لهم إذا تابوا، فقال سبحانه: «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (المائدة: ٧٤)؛ قال ابن كثير: "قال ابن عباس-رضي الله عنهما-: «دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله! ومن زعم أن المسيح هو ابن الله! ومن زعم أن عزيزاً ابن الله! ومن زعم أن الله فقير! ومن زعم أن يد الله مغلوله! ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة! يقول الله تعالى لهؤلاء: (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)» (المائدة: ٧٤). ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء، من قال: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَ» (النازعات: ٢٤)، وقال «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» (القصص: ٣٨). قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا؛ فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه». (تفسير ابن كثير ٧٣/٤).

محبة الله للتائبين:

بين الله تعالى في القرآن العظيم غناه عن خلقه كلهم، وتنزهه عن محبة الانتقام منهم؛ وأن العبد مهما جنى وأساء وظلم إذا تاب وأصلح؛ لا يعذبه الله أدنى عذاب؛ إذ لا حاجة له في عذاب البشر، قال جل وعلا: «مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا» (النساء: ١٤٧).

وأكد الله في القرآن الكريم أنه يحب التائبين؛ فقال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (البقرة: ٢٢٢). وثبت في السنة النبوية أن الله عز وجل يحب التوبة أكثر من حب التائب لها، ويحب المغفرة أكثر من حب الناس أن يغفر لهم، وإن الله سبحانه -لكرمه ورحمته- يرضح بالتائبين، ويحبهم، وفي صورة رائعة يرسم لنا النبي صلى الله عليه وسلم ذلك المعنى ويصوره في صورة حسية؛ لبيّن لنا مدى فرح الله بتوبة عباده وحبّه لأن يغفر لعباده، فقال صلى الله عليه وسلم: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده-حين يتوب إليه- من

أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فأنفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح.. (صحيح مسلم ٢٧٤٧).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يكثر من الاستغفار في اليوم أكثر من سبعين مرة، وذلك ليعلم أمته أهمية الإكثار من الاستغفار، فعن الأغر المزني- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة". (صحيح مسلم ٢٧٠٢).

وختاماً.. فإن مع كثرة ذنوب العباد وأخطائهم، فإن الله تعالى في القرآن الكريم قد فتح للخلق أبواب المغفرة والرحمة، لمن تاب وأمن وعمل عملاً صالحاً.

وإن على العبد المؤمن أن يسارع إلى التوبة بعد الذنب، نادماً راجياً رحمة الله تبارك وتعالى،

وأن يكرر التوبة إذا عاد إلى الذنب. وينبغي للعباد ألا يغتروا بسعة رحمة الله تعالى، وعليهم أن يحتاطوا قبل الوقوع في الذنب، ويسارعوا في التخلص من هوى النفس المهلكة، وتتبع الشهوات المضلة.

وعلى العبد أن يبادر بالتوبة إذا غلبته نفسه على العصيان، أو استجاب في غفلة للشيطان، فمهما بلغ الذنب فإن للغفور باباً للمغفرة لا يغلق حتى تغرغر النفس، أو تطلع الشمس من مغربها.

إذا علم المسلم أن ربه هو الغفور ذو الرحمة، أسرع إلى رضاه، وفر إليه من ذنوبه، وعنده يجد الله أرحم به من نفسه، وأحن عليه من أمه!

فسارعوا عباد الله بالتوبة ولا تقنطوا من رحمة الله، ولا تياسوا من مغفرته ورحمته حتى ولو عدتم للذنوب، ورجعتم إليه مرات عديدة، طالما أنكم تستغفرون وتتوبون؛ فالعبد الموفق المسدد هو الذي إذا أذنب تاب، وإذا أخطأ استغفر، فمهما عاد للذنوب أسرع بالتوبة، فهذا يغفر الله له، فاللهم اشلنا بعفوك ومغفرتك.

إنا لله وإنا إليه راجعون

فقدت جمعية أنصار السنة رجلاً من رجالها، ألا وهو فضيلة الشيخ عبد الرحمن صابر محمد الشنواني، المولود ١٨-٧-١٩٤١م، في قرية منية سلمنت- الشرقية.

كان يعمل موظفًا بالتأمينات والمعاشات.

وكان رئيساً لجمعية أنصار السنة المحمدية- فرع المطرية- القاهرة من سبعينات القرن الماضي، وكان مديراً لإدارة الشئون القانونية وعضو مجلس إدارة المركز العام.

وشهدت جمعية أنصار السنة المحمدية- فرع المطرية- في عهده ازدهاراً دعوياً وخدمياً واجتماعياً، حيث إنه أول من رعى مشروع المليون محفظ، الذي تبناه فضيلة الشيخ صفوت نور الدين، الرئيس السابق للجمعية، رحمه الله، لجميع فروع الجماعة، حيث قام رحمه الله بإنشاء معهد تحفيظ وقرءات للنساء؛ إضافة إلى جهوده في خدمة الدعوة والأيتام والفقراء.

جعل الله ذلك في ميزان حسناته، وقد توفى- رحمه الله- يوم ٩ ذي الحجة، ودُفن في بلده قرية سلمنت، وشهد جنازته جمع غفير.

ويتقدم مجلس إدارة المركز العام بخالص العزاء لأسرة الشيخ رحمه الله، ونسأل الله تعالى له المغفرة والرحمة، وأن يحشره في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:
فمن أعظم وأرفع منازل السائرين إلى رب العالمين، أن يحب
العبد ربه، والأعظم أن يحبه الله جل وعلا.

وقد جعل الله -تبارك وتعالى- من سمات عباده المقربين
أنه يحبهم وهم يحبونه، فقال جل وعلا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
أَئْمَرُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (المائدة: ٥٤).

قال ابن القيم: "فقد ذكر لهم أربع علامات أحدها: أنهم
أذلة على المؤمنين قيل: معناه أرقاء، رُحماء مُشفقون
عليهم. عاطفون عليهم. فلما ضمن أذلة هذا المعنى عداة
بأداة "على". قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده. والعبد
لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته «أَيْدًا عَلَى
الْكَفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ» (الفتح: ٢٩).

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد،
واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.
العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم. وهذا
علامة صحة المحبة فكل محب يأخذ اللوم عن محبوبه
فليس بمحب على الحقيقة.

وقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ
أَتَاهُمْ أَقْرَبَ» (الاسراء: ٥٧) إلى قوله- «مَعْدُورًا» (الاسراء: ٥٧).
فذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه،
والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل
على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف
العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحب
قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته. بل محبة ذاته أوجب
محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعتلة: ما من ذلك
كله شيء. فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولا يقرب
من ذاته شيء.

فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس،
وفرّة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضربت
قلوبهم بالقسوة، وضربت دونهم ودون الله حجب على

علامات محبة الله تبارك وتعالى وثمراتها

إعداد: أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

معرفة ومحبته. فلا يعرفونه ولا يحبونه. ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم.

بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله. ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها. وحسب ذي البصيرة وحياة القلب: ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت، والتنفير عن محبة الله عز وجل ومعرفة وتوحيده. والله المستعان".

(مدارج السالكين: ٢٢/٣)

ولعظم منزلة محبة الله تبارك وتعالى فإن الله سبحانه هو الذي يختار ويصطفى من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)، فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بين هؤلاء المحبين وبين ربهم. الحب هو هذا الروح الساري اللطيف الرفاق المشرق الراقق البشوش هو الذي يربط القوم بربهم الودود. وإذا كان حب الله لعبده من عباده أمراً هائلاً عظيماً وفضلاً غامراً جزيلاً: فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحيته وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها هو إنعام هائل عظيم وفضل غامر جزيل.

وهذا الحب من الله الجليل لعبده من عباده، والحب من العبد لله المنعم المتفضل يملأ النفس بالسكينة والرضا بالقضاء والقدر ويجعل العبد مباركا أينما كان: قال الشيخ الدكتور فريد الأنصاري -رحمه الله-: "أما قوله عز وجل «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» (البقرة: ١٦٥) فلأنهم عرفوا الله عز وجل، فلو لم يعرفوه ما أحبوه، وكيف كان حبهم أشد أي أكثر وأرفع وأعمق وأقوى من حب الآخرين للأنداد، ومعرفة الله ليست ك"اسم" فقط، لا، لأن الله لا يعرف إلا بأمرين يعرف بالعلم «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَا أَلِيمٍ قَابِلًا يَلْقِظُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِيرُ الْعَالَمِينَ» (آل عمران: ١٨)، يعرف بالعلم،

ثم يعرف بالعبادة، لأن العلم يعلمك الصفات، ويعلمك أخبار الحق عن الحق سبحانه وتعالى. ولأن العبادة تساعدك على تذوق معنى كل ما علمت، لأن الإنسان قد يعلم ولا يذوق ما يعلم، لا يعلم العالم حقيقة ما يعلم إلا حينما يذوقه، وذلك ما سماه النبي عليه الصلاة والسلام حلاوة الإيمان، فحلاوة الإيمان إنما تدرك بالسلوك، بالأخلاق، بالعمل، بالسير إلى الله عز وجل، والمؤمن من جمع بين العلم والعمل.

ثمرات محبة الله تعالى:

كلما تعرف العبد على ربه ازداد له حبا وشوقا، ويكثر من ذكره ويأنس بقربه، ويستوحش مما سواه، ويحب الخلوة به ومناجاته، يسارع في طاعته ويعمل دوماً على رضاه، يغار على محارمه، ويغضب من أجله، يفرح بعطاياه ويشكره دوماً عليها.

وكلما ازداد حب العبد لربه ازدادت مبادرته لطاعته واستمتاعه بذكره ومناجاته، وذلك ما جعل رسولنا -صلى الله عليه وسلم- يقول لبلال: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها» (أخرجه أبو داود ٤٩٨٥)، (وصححه الألباني)، فإن هناك بالفضل سعادة حقيقية ومنتعة وشعوراً باللذة والنعيم يجدها المحب في الصلاة في سائر العبادات.

وعندما يتمكن حب الله من قلب العبد، فإن هذا من شأنه أن يجعله دوماً حريصاً على اغتنام أية فرصة تتاح له فيها الخلوة به -سبحانه- ومناجاته، يضحى بالغالي والرخيص من أجله، يرضى بكل ما يقضيه له، ويبذل غاية جهده في خدمته، كما أن المحبة الصادقة لله -عز وجل- تدفع صاحبها لبذل كل ما يملكه من أجل نيل رضا محبوبه، وليس ذلك فحسب بل إنه يفعل ذلك بسعادة، وكل ما يتمناه أن تحوز هذه التضحية على رضا.

كما أن المحب الصادق في حبه لله عز وجل يستحي أن يراه حبيبه في وضع مشين، أو مكان لا يحب أن

يراه فيه، فإذا ما وقع في معصية أو تقصير سارع بالاعتذار إليه واسترضائه بشتى الطرق. بل إن أي بلاء يتعرض إليه يجعله قلقاً بأن يكون هذا البلاء مظهرًا من مظاهر لوم الله له وغضبه عليه، لذلك تجده حينئذ يهرع إلى مولاه يسترضيه ويتذلل إليه ويستغفره، ويطلب منه العفو والصفح.

وفي هذا المعنى يقول ابن رجب: "إن محبة الله إذا صدقت أوجبت محبة طاعته وامتنالها، وبغض معصيته واجتنابها، وقد يقع المحب أحياناً في تفريط في بعض المأمورات، وارتكاب بعض المحظورات، ثم يرجع إلى نفسه بالملامة، وينزع عن ذلك، ويتداركه بالتوبة" (استنشاقي نسيم الأنس لابن رجب/ ٣٧).

ومن ثمرات محبة الله: الثبات والعزيمة في النصح ابتغاء وجه الله، وعدم إثارة محبة المخلوقين. ومن ثمرات محبة الله تعالى: الشفقة التي يجدها المحب في قلبه تجاه الناس جميعاً بخاصة العصاة منهم، وأن الذي يرضيه - سبحانه - هو عودة الجميع إليه ودخولهم الجنة، لذلك تجد هذا المحب شقيقاً على الخلق، حريصاً على دعوتهم لسان حاله يقول: «يَقُومُ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةً إِلَى أَخَاي عَلَيْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (الأعراف: ٥٩). ولذلك تجده يستخدم في ذلك كل الطرق والوسائل الممكنة، ولا يرتاح له بال حتى يُعيد الشاردين إلى حظيرة العبودية لربهم.

ومن الأمثلة العظيمة التي تبين تلك الشفقة على العصاة ما فعله مؤمن آل فرعون مع قومه، تأمل أقواله الذي جاء ذكرها في سورة غافر: «يَقُومُ إِلَى أَخَاي عَلَيْكُمْ نَزَلَ يَوْمَ الْآخِرَةِ» (غافر: ٣٠) «يَقُومُ الْيَوْمَ أَعِدْتُكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» (غافر: ٣٨). «وَيَقُومُ مَا لِيَ أَدْعُوَكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَتَذَكَّرُوا إِلَى النَّارِ» (غافر: ٤١). «وَأَنَا أَدْعُوَكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْعَمْرِ» (غافر: ٤٢). هذه الثمرة العظيمة من ثمار المحبة

من شأنها أن تجعلنا نقوم بتعديل خطابنا الدعوي، فنستوعب الجميع ونبشرهم ونطمئنهم تجاه ربهم قبل تخويضهم وترهيبهم.

وعندما يستبد حب الله في قلب العبد فإن هذا من شأنه أن يجعله يغار لمولاه، وعلى محارمه أن تنتهك، وحدوده أن تتجاوز، وأوامره أن تخالف. فمع شفقتة على العصاة، إلا أن هذا لا يمنعه من بغضه لتصرفاتهم التي تغضب ربه، ولو كانت من أقرب الناس إليه. «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْرَةٌ فِي إِيْمَانِهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقُرْآنُ نَزَّلَ مِنَّا وَمَعَا تَعْلَمُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكَ وَبَيْنَا وَبَيْنَكَ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمَرُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ» (الممتحنة: ٤).

ومن لوازم هذه الغيرة: الغيرة على رسوله، وكيف وهو أحب الخلق إلى الله، فلو كانت المحبة لله صادقة لتبعتها ولازمتها محبة رسوله والغيرة عليه، ولقد تمثل هذا الأمر في الصحابة جيداً، ولعل ما حدث لخبيب بن عدي ما يؤكد ذلك، فقد تم أسره في يوم الرجيع، وضرب لكي يُقتل، وقبل قتله قال المشركون له: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: لا والله العظيم. ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه. (حياة الصحابة للكاتب هادي/ ٤٠٠).

ومع كل الثمار السابقة تأتي أهم ثمرة للمحبة ألا وهي الاستغناء بالله سبحانه وتعالى، والاكتفاء به. «وَاللَّهُ حَيٌّ وَالْقَى» (طه: ٧٣)، فينعكس ذلك على تعاملات العبد مع الأحداث التي تمر به، فإن اذلمت الخطوب استشعر معية الله له «لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَكَ» (التوبة: ٤٠)، وإن تشابكت أمامه الأمور تذكر فردد في نفسه «إِنَّ مَعَ رَبِّي سَهَابِينَ» (الشعراء: ٦٢). شعاره الدائم «وَكُنْ بِأَمْرِ وَكِيلًا» (النساء: ١٣٢). نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يحبون ربهم حق محبته، وأن يرزقنا الشوق إلى لقائه ولذة النظر إلى وجهه الكريم، إنه هو البر الرحيم، والحمد لله رب العالمين.



كيف نفوز بمحبة الله تبارك وتعالى؟

أعداد: عبد العزيز مصطفى الشامي

أنس-

رضي الله

عنه- قال: قال

رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يُعْودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (أخرجه البخاري ١٦).

ومما يدل على رفعة مكانة من يحبهم رب العالمين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أحب الله تعالى العبد، نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلاناً، فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض". (صحيح البخاري ٣٠٣٧).

ومحبة الله تعني إثارة ما يحبه الله ويرضاه على ما سواه؛ وذلك بالالتزام أمر الله، واجتناب نهيه واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وسلوك طريق المؤمنين المتقين، وصرف المحبة الإيمانية لكل محبوب لله، والبعد عن كل ما يسخط الله وينافي محبته، فمن

الحمد لله، والصلوة

والسلام على رسول الله،

وبعد:

فإن محبة الله من أعظم

مقامات العبادة عليها تدور

رحى الطاعة والسير إلى الله:

لأنها تسوق المؤمن إلى القرب من ربه،

وترغبه في الإقبال على الله تعالى.

وان من أعظم منازل السائرين إلى رب العالمين،

أن يُحِبَّ العبد ربه سبحانه، والأعظم منه أن يحبه الله-جل وعلا- فسيجد ثمرات هذه المحبة عظيمة: فعن أبي هريرة-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه". (صحيح البخاري ٦١٣٧).

ومحبة الله يذوق بها العبد حلاوة الإيمان، فعن

علامات محبة الله محبة ما يحبه، فعن عائشة- رضي الله عنها-، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعث رجلاً على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فلما رجعوا، ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟" فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأننا أحب أنقرأ بها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أخبروه أن الله تعالى يحبه". (صحيح مسلم: ٨١٣).

ومحبة الله تعالى ركن من أركان العبودية، قال ابن القيم: «روح العبادة هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلى أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد». (مدارج السالكين: ٤٩٥/٢)

ولهذا كان من واجبات الإيمان ولوازمه: محبة الله تعالى، ومحبة ما يحبه الله ورسوله من الإيمان والعمل الصالح، وتوابع ذلك، وبُغض ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والمعاصي، وبغض أعداء الله تعالى.

ومحبة العبد لربه ينبغي أن تكون أعظم من كل محبة أخرى، قال الله تعالى: «قُلْ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكُمْ مَقَالَاتِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ أَكْثَرُ الظَّالِمِينَ» (البقرة: ٢٤).

ومن أحب غيره كحبه- سبحانه- فقد أشرك مع الله غيره، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَكْبَرُ مِنْ رَبِّكَ اللَّهُ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» (البقرة: ١٦٥)، "أي: يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله، وقال الزجاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله فسوا بين الله وبين أوثانهم في المحبة". (تفسير البغوي: ١٧٨/١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله- تعالى- فقد أشرك وهذا كقوله: «وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ» (الشعراء: ٩٦-٩٨)، وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك" (مجموع الفتاوى: ٩٢/١).

فاذا كانت محبة الله تعالى بهذه المنزلة، فما أهم الوسائل المعينة على الفوز بمحبة الله تبارك وتعالى؟

من الوسائل المعينة على الفوز بمحبة الله تعالى:

١- تلاوة القرآن الكريم والتفكير في المصحف:

أعظم طريق موصول إلى محبة الله تعالى: معرفته سبحانه، واليقين بعظمته جل وعلا، وتدبر معاني أسمائه وصفاته. ولا شك أن القرآن الكريم هو أفضل وسيلة للتعريف بالله عز وجل، والتذكير الدائم بعظمته وصفاته كماله وجلاله، فتلاوة القرآن وتدبره تغرس في القلوب محبة آلاء الله وعظمته، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سره أن يحب الله ورسوله، فليقرأ في المصحف». (صحيح الجامع: ٦٢٨٩).

ومما يساعد العبد على ارتفاعه بالقرآن هو التزامه بما أمره الله به من تدبر وتفهم لما يقرأ من آيات، وكذلك ترتيله لها، فالفهم والتدبر يخاطبان العقل فيقتنع، والترتيل يهز المشاعر، فيمتزج بذلك الفكر مع العاطفة لينثر يقيناً في العقل، وإيماناً في القلب، وهذا لا يتوافر في أي كتاب آخر على وجه الأرض «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتُنَا عَظِيمًا» (العنكبوت: ٥١).

يقول ابن رجب: "سماع القرآن ينبت القرآن في القلب كما ينبت الماء البقل". (مجموع رسائل ابن رجب: ٤٧٤/٢).

فلنحرص دائماً على أن نتعرف على ربنا سبحانه،

ولن نجد وسيلة لغرس محبة الله في القلوب أفضل من تلاوة القرآن الكريم وتدبره واستماعه. وإن القرآن هو أفضل وسيلة لغرس حب الله في القلب والوصول لمرحلة الأنس به والشوق إليه سبحانه، لذلك أنصح نفسي وإياك أن تكثر من تلاوته بفهم وترتيل وتباكٍ، وأن نتعرف على الله الودود من خلال هذا الكتاب المعجز، وحيداً لو خصصنا ختمة أو أكثر لهذا البحث العظيم. يقول ابن رجب: "ومما يستجلب المحبة، تلاوة القرآن بالتدبر والتفكير لا سيما الآيات المتضمنة للأسماء والصفات والأفعال الباهرات، ومحبة ذلك يستوجب به العبد محبة الله، ومحبة الله له". فتتحقق "يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" (استنشاق نسيم الأنس لابن رجب، ص ٥٥).

ومن خلال مداومة قراءة القرآن أثناء الليل وأطراف النهار تزداد مساحة حب الله في قلوبنا شيئاً فشيئاً، فيثمر ذلك شوقاً مستمراً إليه يجعل صاحبه في عجلة دائمة للاتصال بالله من خلال قراءة القرآن في الصلاة وخارج الصلاة وكذلك في الدعاء والذكر والمناجاة «وَعَبَّادُوا اللَّيْلَ رَبِّ لَقَرْنٍ» (طه: ٨٤).

٢- ومن الوسائل المعينة على نيل محبة الله تبارك وتعالى، التفكير في الكون وأحداث الحياة،

مع الآيات المقروءة في القرآن تأتي الآيات المرئية والمنظورة في الكون وأحداث الحياة. فكل ما في الكون يدل على الله ويذكر به «أَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَتَقَرُّ ۚ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (فصلت: ٥٣). ولقد حدثنا سبحانه- على أن نتفكر في آياته المبثوثة في كونه، وفيما يمر بنا من أحداث في حياتنا لتكون وسيلة للتذكير الدائمة به. ومن ثم الوصول إلى معرفته، وحبه، والتعلق التام به. تأمل قوله تعالى: «أَلَمْ يَخْلُقْنَا إِلَىٰ أَلْمَاقٍ ۚ فَوَقَّعَهُمْ كَيْفَ يَتَّبِعُونَ ۚ وَمَا مِنْ فَوْجٍ إِلَّا وَفْقٌ ۚ وَالْأَرْضُ مَرْغَبُهَا وَالنَّارُ بَرَارُهَا ۚ وَاللَّهُ يَوْمَئِذٍ عَلِيمٌ ۚ» (نوح: ٦٠-٨).

ومما يلفت الانتباه أن الله عز وجل يُصرف الآيات

الكونية ويكررها بأشكال مختلفة. كما يكرر الآيات بأساليب مختلفة في القرآن ليتم من خلالها التذكير والتبصرة. ومن ثم يزداد الإيمان رسوخاً في القلب «نَظَرُ كَيْفَ تُصَوِّرُ الْأَنْبِيَاءُ لِقَاءَهُمْ بِتَقْهُورٍ» (الأنعام: ٦٥). ومثال ذلك: الحر الشديد أو البرد الشديد، أو العواصف، أو... كل ذلك آيات تذكر بالله عز وجل.

وكما أن الله عز وجل قد ذم من يعرض عن تدبر القرآن وفهم المراد من آياته، فإنه كذلك قد ذم من يعرض عن التدبر والتفكير في آياته المبثوثة في كونه «مَنْ الظَّالِمُ الَّذِي كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَّقَ عَنْهَا» (الأنعام: ١٥٧). «وَكَلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ بِشْرُوتٌ عَلَيْهَا ۖ وَأَمْ عَنْهَا مَفْرُشُونَ» (يوسف: ١٠٥).

ولذا لا بد إذا من التفكير في آيات الله المبثوثة في كونه المنظور والذي يشمل المخلوقات التي تراها أعيننا كالسماء والجبال والأشجار، ويشمل كذلك أحداث الحياة المختلفة التي تمر بكل إنسان.

«أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ» (الأعراف: ١٨٥)، فيستدل المرء من خلالها على الله عز وجل فيزداد به معرفة، فإذا ما تجاوب القلب مع هذه المعرفة ازدادت مساحة الإيمان فيه، وانجلت بصيرته، وشيئاً فشيئاً يتنور القلب فيرى بهذا النور صفات ربه تتجلي من وراء كل شيء تراه عيناه، فيوحده التوحيد الحقيقي، ويربط حياته كلها به.

لذلك كان التفكير من أفضل العبادات سواء كان هذا التفكير في آيات القرآن، أو آيات الكون.

يقول ابن رجب: "كان السلف يفضلون التفكير عن نوافل العبادة. وكان أكثر عمل أبي الدرداء الاعتبار والتفكير". (استنشاق نسيم الأنس، ص ٤٩).

وللحديث بقية عن الوسائل المعينة على الفوز بمحبة الله تعالى، نسأل الله أن يرزقنا حبه وحب العمل الصالح الذي يقربنا إلى حبه.



كيف نفوز بمحبة الله تبارك وتعالى؟

الحمد

لله. والصلاة

والسلام على رسول الله. وبعد،

من واجبات الإيمان ولوازمه: محبة الله

تعالى ورسوله ومحبة ما يحبه الله ورسوله

من الإيمان والعمل الصالح. وتوابع ذلك. ويغض ما

يغضه الله ورسوله من الكفر والفسق والمعاصي.

ويغض أعداء الله تعالى ورسوله. قال شيخ الإسلام

ابن تيمية -رحمه الله-: «محبة الله ورسوله من

أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده.

بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين.

(التحفة العراقية: ص ٥٧).

ومحبة العبد لربه ينبغي أن تكون أعظم من كل

محبة أخرى. قال الله تعالى: «قُلْ كَذَلِكَ نَأْمُرُكُمْ

وَأَنبِئُكُمْ وَأَخْوَئُكُمْ وَأَنذَرُكُمْ وَنُؤْمِنُكُمْ أَفَتَعْصِمُونَهَا

وَعَصْرُكُمْ كَسَادَهَا وَسَيَكُنْ رِجْسُهَا أَحَدًا إِلَيْكُمْ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتُصْلَحُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ

بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ». (التوبة: ٢٤).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-: "

محبة الله ورسوله يتعين تقديمها على محبة كل

شيء. وجميع الأشياء تابعة لهما: فقال تعالى: «قُلْ

إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَمِثْلُهُمُ الْأَمْهَاتُ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَخْوَانُكُمْ

فِي النَّسَبِ وَالْعَشِيرَةِ «وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ»

أي: قربائكم عموماً «وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا» أي:

اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها. خصها بالذكر.

أعداد / أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

لأنها

أرغب عند

أهلها. وصاحبها أشد حرصاً عليها ممن تأتيه

الأموال من غير تعب ولا كد.

«وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا» أي: رخصها ونقصها.

وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من

عروض التجارات. من الأثمان. والأواني. والأسلحة.

والأمتعة. والحبوب. والحرث. والأنعام. وغير ذلك.

«وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا» من حسناتها وزخرفتها

وموافقتها لأهوائكم. فإن كانت هذه الأشياء «أحبَّ

إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله» فأنتم

فسقة ظلمة.

«فَتَرَبَّصُوا» أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب

«حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ» الذي لا مرد له.

والله لا يهدي القوم الفاسقين» أي: الخارجين

عن طاعة الله. المقدمين على محبة الله شيئاً من

المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة

الله ورسوله. وعلى تقديمها على محبة كل شيء.

وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد. لمن كان شيء

من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله.



٦) بحراً ودر توفان بحر عبد فیصہ (ق: ٦-٨).

وعلاوة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيها هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّت عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه". (تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن: ص ٣٣٢).

ومن أحب غيرَه كحبه-سبحانه- فقد أشرك مع الله غيرَه، قال الله تعالى: « وَمِمَّنْ آتَيْنَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِ ادْعُوا بِحُكْمِ اللَّهِ وَابْعَثُوا فِي دِينِكُمْ رَسُولًا يَقُولُ أَنْذِرُوا آلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَأَرْسِلَ فِي أُمَمٍ خَلَفَتْ مِنْ دُونِكُمْ وَلَهُ يَكُونُ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ لَهُ جِبَعًا مِمَّا يَفْعَلُ وَكَانَ عَلِيمًا » (البقرة: ١٦٥)، "أي: يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله، وقال الزجاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أوثانهم في المحبة". (تفسير البغوي: ١٧٨/١).

ولما كانت محبة الله تعالى بهذه المنزلة، فقد ذكرنا في العدد الماضي أول الوسائل المعينة على الفوز بمحبة الله تبارك وتعالى، ونكمل فنقول وبالله تعالى التوفيق:

٢- ومن الوسائل المهمة على نيل محبة الله تبارك وتعالى:

التفكير في الكون وأحداث الحياة:

مع الآيات المقروءة في القرآن تأتي الآيات المرئية والمنظورة في الكون وأحداث الحياة. فكل ما في الكون يدل على الله ويذكر به «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرْ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (فصلت: ٥٣). ولقد حثنا- سبحانه- على أن نتفكر في آياته الماثلة في كونه، وفيما يمر بنا من أحداث في حياتنا لتكون وسيلة للتذكرة الدائمة به، ومن ثم الوصول إلى معرفته، وحبّه، والتعلق التام به. تأمل قوله تعالى: «أَلَمْ نَخْلُقْ

أَلَمْ يَوْفَيْهِمْ كَيْفَ بَيَّنَّا وَرَبَّنَا وَمَا لَهَا مِنْ فَرْجٍ ۝

ومن الأعمال الصالحة التي تسقي شجرة المحبة: تحبيب الناس في الله عز وجل، وذلك بالحديث معهم عن نعمه سبحانه ومدى حبه لهم ورأفته وشفقته ولطفه بهم. فهذه الوسيلة لها أكثر من فائدة، منها: أنها تذكر المتحدث بما قد يكون غفل عنه، فتجعله في حالة دائمة من التذكر والانتباه. ومن فوائدها كذلك: أنها تدفعه إلى العمل بما يقول حتى لا يدخل في دائرة من يقول ولا يفعل. ومنها كذلك: أنها من أفضل الأعمال التي يحبها الله عز وجل، ومن ثم فإنها تعرض صاحبها لنفحات المحبة الإلهية.

وعن أبي أمامة الباهلي أنه كان يقول: "حببوا الله إلى الناس يحبكم الله". (المحبة لله سبحانه للجنيد، ص ٥٧).

وجاء في الأثر أن الله عز وجل أوحى إلى داود عليه السلام: "يا داود أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يا رب، هذا أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحبك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلاني فإنهم لا يذكرون مني إلا خيراً" (المحبة لله سبحانه للجنيد، ص ٦٣).

وعن كعب قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: أتعب أن تحبك جنتي وملائكتي، وما ذرات من الجن والإنس؟ قال: نعم يا رب. قال: حببني إلى خلقي. قال: كيف أحبك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم آلاني ونعمائي، فإنهم لا يذكرون مني إلا كل حسنة، (استنشاقي نسيم الأنس، ص ٤٥). وكان أبو الدرداء يقول: "إن أحب عباد الله إلى الله عز وجل الذين يحبون الله ويحببون الله إلى الناس" (استنشاقي نسيم الأنس، ص ٧٥).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الناس في الله عز وجل، ويدفعهم للفرار إليه مهما ارتكبوا من آثام؛ فقد أتاه يوماً من الأيام شيخ كبير وهو يستند على عصاه، فقال: يا نبي الله إن لي

غدرات وفجرات فهل يغفر الله لي؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فإن الله قد غفر لك غدراتك وفجراتك. فانطلق وهو يقول: الله أكبر الله أكبر" (أخرجه أحمد ١٩٦٥٢، وقال الهيثمي: رجاله ثقات).

وكذلك كان صحابته: فهذا أبو هريرة رضي الله عنه يلقي الفرزدق وقد كان شاعراً يقذف النساء، وكانت الناس تكره فيه ذلك، فماذا قال له أبو هريرة عندما لقيه؟

يقول الفرزدق: قال لي أبو هريرة: أنت الفرزدق؟ قلت: نعم. فقال: أنت الشاعر؟ قلت: نعم. فقال: أما إنك إن بقيت ثقيت قومًا يقولون لا توبة لك، فإياك أن تقطع رجاءك من رحمة الله". (حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا، ص ٦٩).

ومات لرجل ابن مسرف على نفسه، فلقبه علي بن الحسين فقال له: إن من وراء ابنك ثلاث خلال: أما أولها فشهادة أن لا إله إلا الله، وأما الثانية فشفاععة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الثالثة فرحمة الله عز وجل التي وسعت كل شيء. (حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا، ص ٦٩).

٤ - ومن الوسائل المعبنة على الفوز بمحبة الله تبارك وتعالى:
الإلحاح على الله بأن يرزقنا حبه،

علينا أن نسأل الله عز وجل ونلج عليه بأن يرزقنا حبه، مثل ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن دعائه ما ثبت عن عبد الله بن يزيد الخطمي الأنصاري، عن رسول الله أنه كان يقول في دعائه: «اللهم أرزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فأجعل له قوة لي فيما تحب. اللهم وما رزيت عني مما أحب فأجعل له قوة لي فيما تحب»، (السلسلة الصحيحة، ٧٠٧).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.



حقيقة الإخلاص لله تعالى

أ. عبد العزيز مصطفى الشامى

اعداد

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد؛

فإن إخلاص العمل لله تبارك وتعالى من أعظم أصول هذا الدين، ويُعدّ الإخلاص من أهم أعمال القلوب، وأعظمها قدراً وشأناً، فبحسب الإخلاص يُقبل عمل العبد أو يُردّ عليه. وهذا الدين كله يقوم على الإخلاص، يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)، وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (الزمر: ١١)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ (الزمر: ١٤).

والإخلاص لبّ الأعمال وروحها، وله ثمرات عظيمة في دنيا المسلم وآخرته؛ إذ بالإخلاص تطمئن القلوب، وتهبّ النفوس؛ لأنها تعامل علام الغيوب، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والذي يعلم السر وأخفى، فيرجون بعملهم كله وجه ربه سبحانه، شعارهم دائماً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَسْتَعِينُ اللَّهَ لَنُفِذَ بِكَ حَرْماً وَلَا شُكُوراً﴾ (الإنسان: ٩).

معنى الإخلاص وحقيقته:

قال ابن القيم: "الإخلاص هو إفرااد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة" (مدارج السالكين ٩١/٢). وقال ابن رجب: "الإخلاص في اللغة ترك الرياء، وفي الاصطلاح: تخليص القلب عن شائبة الرياء والسمعة المكدر لصفائه". (القواعد ١٦٥/١). الإخلاص، أن تكون الحياة لله، وأن يكون الممات لله.

وأن تكون الصلاة لله، وأن يكون التسك والعبادة كلها خالصة لوجه الله، لا تصرف لأحد، ولا لبشر، ولا لحجر، ولا لبقر، ولا لطاغوت، ولا لوثن، ولا لأحد من الناس كائنًا من كان، هذه هي العبادة لله: ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ الدِّينِ وَمِلْكُ الدُّنْيَا﴾ (الفاتحة: ٥).

منزلة الإخلاص وأهميته:

لا بد من إخلاص النية لله في أي عمل يعمل به العبد. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)، وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى) (صحيح البخاري: ١)، وقال صلى الله عليه وسلم: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك: من عمل عملاً أشرك فيه غيري فإننا بريء منه: وهو كله للذي أشرك). (أخرجه مسلم ٢٩٨٥).

ولا بد في إخلاص العمل من أن يكون هذا العمل مما شرعه الله على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾



في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". (أخرجه البخاري ٣١٢٦، ومسلم ١٩٠٤).

من علامات الإخلاص:

١- أن يبتغي المسلم الأجر من الله تعالى وحده: فلا يبحث عن شهرة، ولا مكانة اجتماعية، ولا زعامة، ولا ثناء الناس عليه، قال تعالى على لسان بعض الأنبياء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ (الشعراء: ١٠٩)، وقال الإمام الشافعي-رحمه الله-: (وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم، وما نسب إلي شيء منه). (إكمال تهذيب الكمال: ١/١٨٥).

٢- أن يكون عمل السر عنده أفضل من العلانية: ففي الحديث عن أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلا تعلم شماله ما أنفقت يمينه) (أخرجه البخاري ٦٢٩، ومسلم ١٠٣١)، فلما أخفى صدقته وأخلص فيها لله تعالى، رفع الله قدره وأظله في ظله.

٣- إساءة الظن بالنفس، واتهامها بالتقصير: فالمخلص من العباد من يأتي بجميع العبادات على أحسن وجه، ومع ذلك هو خائف أن لا يتقبل الله منه عمله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍَ لَّهِمْ شَرٌّ مَّا يَدْعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

٤- استواء المدح والذم: فالمخلص يقوم بجميع أعماله على ما يرضى الله تعالى-ثم بعد ذلك لا يبالي أَرْضَى النَّاسُ أَمْ سَخَطُوا، مدحوا أم ذموا. وكان بعض السلف يقول في الرجل يمدح في وجهه، قال: "التَّوْبَةُ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا تَوَاضَعْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاعْزَلْنِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، واجعلني خيرا مما يظنون". (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٥٣٤). نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

﴿آل عمران: ٣١﴾. ويقول-صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد). وفي لفظ في صحيح مسلم أيضا: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (أخرجه مسلم ١٧١٨).

وبالإخلاص والمتابعة يتحصن المسلم من ألد أعدائه ألا وهو الرياء والبدعة والشرك. يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: (فهما توحيدان، لا نجا للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول-صلى الله عليه وسلم-). (شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٠٠).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وبالجملة فمعنا أصلاً عظيماً: أحدهما: أن لا نعبد إلا الله. والثاني: أن لا نعبد إلا بما شرع. لا نعبد بعبادة مبتدعة. وهذان الأصلان هما تحقيق (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) كما قال تعالى: ﴿يُبَلِّغُكُمْ أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه. قالوا. يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل. وإن كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/٣٣٣-٣٣٤).

ولذلك اشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم الإخلاص كشرط أساس لقبول الله للعمل من العبد، فبين صلى الله عليه وسلم أن من أشرك في نيته وقصده لله ولغيره، فإن الله سبحانه لا يقبل منه هذا العمل حتى لو كان عظيماً، فعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.
وبعد:

فإن الإخلاص لله تبارك وتعالى في الأقوال والأعمال
من أهم أعمال القلوب، وأعظمها قدراً وشأناً، فبحسب
الإخلاص يكون قبول عمل العبد أو يرد عليه. والذين
كله يقوم على الإخلاص لله تعالى؛ يقول الله جل
وعلا: «وَمَا أَرْأَى إِلَّا لِعَظْمَاءِ اللَّهِ تَحِيَّةً لَهُ الْيَوْمَ» (البينة: ٥)،
وقال تبارك وتعالى: «قُلْ لَيْتَ أَرَأَيْتُمْ أَذُنُكُمْ تُحِبُّونَ لَهُ الْيَوْمَ»
(الزمر: ١١). وقال سبحانه وتعالى: «قُلْ اللَّهُ أَغْنَىٰ عَنْكُمْ رَبِّي»
(الزمر: ١٤).

والإخلاص لب الأعمال وروحها. وله ثمرات عظيمة
في دنيا المسلم وآخرته؛ إذ بالإخلاص تطمئن القلوب،
وتهدأ النفوس؛ لأنها تعامل علام الغيوب، الذي لا تخفى
عليه خافية في الأرض ولا في السماء. والذي يعلم
السر وأخفى. فيرجون بعملهم كله وجه ربهم سبحانه،
شعارهم دائماً قوله تعالى: «إِنَّا نَتَّبِعُكَ نَبِيًّا أَن يَقُولَ لَكُم كُنْ فَتَبِعُوا
وَلَا تُشْكِرُونَ» (الأنسان: ٩).

ثمرات الإخلاص:

للإخلاص ثمرات عظيمة. تنفع العبد في دنياه، وتسعده
يوم يلقي ربه سبحانه، ومن أبرز الشواهد على نفع
الإخلاص في الدنيا ما يلي:

أ- تفريج الكربات، وإزالة القوم، وإذهاب الهموم:

ومن ذلك ما ثبت في الصحيح في قصة أصحاب الغار أولئك
الثلاثة الذين أخبرنا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم
أنهم دخلوا غاراً فوقعت صخرة فسدت عليهم باب الغار
فتوسلوا إلى الله بالإخلاص، وتوسل كل واحد من الثلاثة
بإخلاصه في عمله لله تعالى. فكلهم يقول: (اللهم فإن
كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه)،
ولما علم الله إخلاصهم فرج عنهم الله ببركة إخلاصهم.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله وهو يستنبط الفوائد
والعبر من هذا الحديث: "وقبه من العبر: أن الإخلاص من
أسباب تفريج الكربات؛ لأن كل واحد منهم يقول: (اللهم
إن كنت فعلت ذلك من أجلك فافرج عنا ما نحن فيه). أما
الرياء - والعياذ بالله -، والذي لا يعمل الأعمال إلا رياء

ثمرات الإخلاص لله تعالى

أ. عبد العزيز مصطفى الشامي



يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له. (أخرجه الترمذي ٢٤٦٥) وصححه الألباني).

قال العلامة المباركفوري في "تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي": (همه) أي قصده ونيته. (جعل الله غناه في قلبه) أي جعله قانعاً بالكفاف والكفاية كي لا يتعب في طلب الزيادة (وجمع له شمله) أي أموره المتفرقة بأن جعله مجموع الخاطر بتهيئة أسبابه من حيث لا يشعر به (واتته الدنيا) أي ما قدر وقسم له منها (وهي راغمة) أي ذليلة حقيرة تابعة له لا يحتاج في طلبها إلى سعي كثير. بل تأتيه هينة لينة على رغم أنفها وأنف أربابها.

(ومن كانت الدنيا همه) وفي المشكاة: ومن كانت نيته طلب الدنيا (جعل الله فقره بين عينيه) الاحتياج إلى الخلق كالأمر المحسوم منصوباً بين عينيه (وفرّق عليه شمله) أي أموره المجتمعة. قال الطيبي: يُقال جمع الله شمله أي ما تشئت من أمره.

وفرّق الله شمله أي ما اجتمع من أمره، فهو من الأضداد (ولم يأتيه من الدنيا إلا ما قدر له) أي وهو راغم، فلا يأتيه ما يطلب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه. (تحفة الأحوذى شرح سنن الترمذي: ١٣٩/٧).

ج- النجاة من المهالك

إن الله تعالى يمدّ المخلص بعونه، ويحرسه بعينه التي لا تنام، ولا يتخلّى عنه إذا حلت بساحته الخطوب، وأحاطت به الشدائد والكروب، فهو سبحانه يستجيب دعاءه، ويلبّي نداءه، ويكشف عنه الغمة.

ومن عجيب ما ذكره القرآن في ذلك: استجابة الله تعالى دعاء المشركين، إذا جرت بهم بهم الظلك في البحر، وهاجت عليهم الرياح، وأحاط بهم الموج من كل مكان، فيدعون الله في تلك اللحظات بصدق وإخلاص، فيستجيب لهم، وإن غيروا بعد ذلك

وسمعة حتى يمدح عند الناس: فإن هذا كالزبد يذهب جفاً لا ينتفع منه صاحبه: نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص له.

ولما كان الإخلاص هو أساس كل عمل، فلا تجعل نصيباً من عبادتك لأحد. اجعلها كلها لله عز وجل حتى تكون مقبولة عند الله: لأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» (أخرجه مسلم: ٥٣٠٠). فكان الإخلاص في العمل سبباً لرحمة الصخرة العظيمة في الجبل بإذن الله تعالى. (شرح رياض الصالحين ١٤/١) للشيخ ابن عثيمين رحمه الله).

ومن الأدلة أيضاً على أن الإخلاص لله تعالى في العمل ينجي صاحبه في الدنيا والآخرة، ما صح عن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «يَغْزُو جَيْشُ الْكُفَّةِ إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ يُخْشَفُ بِأَوْلَهُمْ وَآخِرَهُمْ». قالت: قلت: يا رسول الله. كيف يُخْشَفُ بِأَوْلَهُمْ وَآخِرَهُمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قال: (يُخْشَفُ بِأَوْلَهُمْ وَآخِرَهُمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ). (أخرجه البخاري ٢١١٨).

ففي هذا الحديث إشارة إلى أن دور النية الصالحة والإخلاص لله تعالى يجعل المرء بمنجاة عن الهلكة في الآخرة.

ب- سَكِينَةُ النَّفْسِ وَاطْمَئِنَانُهَا

الإخلاص يُكسب صاحبه الأمن والسكينة، فيشعر بانسراح الصدر، وهدوء النفس، وفي الحديث أنس ابن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هِمَّةً، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَآتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هِمَّةً، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ. وَلَمْ



الدنيا والآخرة غير طريق الإخلاص، فقد ينال غير المخلص مراده وينجح في تحقيق هدفه الدنيوي، لكنه لن يحصل على نجاح الآخرة وثوابها. قال الله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» (النساء: ١٣٤). «مَنْ كَانَ يُرِيدُ» بعمله «ثواب الدنيا»: «فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» مَنْ أَرَادَهُ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَلَمَّاذَا يَطْلُبُ أَحَدُكُمْ الْأَخْسَ، وَهَلَا طَلَبَ الْأَعْلَى بِإِخْلَاصٍ لَهُ حَيْثُ كَانَ مُطْلَبُهُ لَا يَوْجَدُ إِلَّا عِنْدَهُ «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»؟

د- الإخلاص يقلب المباحات إلى طاعات،

ولو لقي رجل مشرك ربه- سبحانه وتعالى- بالدنيا وما فيها، وقدمه لله تعالى لينجيهِ من النار لن ينفعه ذلك؛ لأنه لم يكن مُوحِّداً مُخْلِصاً، قال- عليه الصلاة والسلام-: «يَقُولُ اللَّهُ- تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَا هُؤُونَ أَهْلُ النَّارِ عَذَابًا؛ لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُقْتَدِيًا بِهَا؟» فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ- أَحْسِبُهُ قَالَ- وَلَا أَذْخَلَ النَّارَ؛ فَأَبَيْتَ إِلَّا الشَّرْكَ» (صحيح مسلم: ٧٢٦١).

وفي رواية في مسند الإمام أحمد: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَلَأُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ مُقْتَدِيًا بِهِ؟» فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ. قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: لَقَدْ سَلَّمْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ- عَزَّ وَجَلَّ-: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ قَلْبًا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ» (مسند أحمد: ١٣٦٣٤). ومسلم بدون الآية.

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص له في الأقوال والأعمال، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وبدلوا، يقول الله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْبُغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (يونس: ٢٢-٢٣). وإنما أنجاهم واستجاب لهم. لأنهم «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» فقد رجعوا في تلك اللحظة إلى الفطرة. وسقطت الآلهة المزيفة، ولم يبق لديهم إلا الله يدعونه بإخلاص ويتجهون إليه.

د- الإخلاص يقلب المباحات إلى طاعات،

فقد روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّكَ لَنْ تَنْفُقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَرْتَ عَلَيْهَا. حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ». ه- النية الخالصة تبلغ مبلغ العمل: قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى إِلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ مِنَ اللَّيْلِ فغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كَتَبَ لَهُ مَا نَوَى. وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (رواه النسائي وصححه الألباني). وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» (رواه مسلم في صحيحه).

و- الإخلاص يحمي العبد من كيد الشيطان،

قال الله تعالى عن يوسف- وقد نجا من كيد امرأة العزيز-: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» (يوسف: ٢٣). قاعدة الانطلاق وقارب النجاة: فيصل بن علي البعداني.

ز- النجاح في الدنيا والآخرة،

إن المخلص لله تعالى في أقواله وأعماله ونياته موعود بالنجاحين: النجاح في الدنيا والنجاح في الآخرة. وليس هناك من طريق يجمع النجاح في



التوكل على الله تبارك وتعالى

إصدار ١ أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد: فإن التوكل على الله تبارك وتعالى من أعمال القلوب المهمة، التي تدل على صدق إيمان المسلم، وتعلقه بربه سبحانه وتعالى، وتفويضه الأمور إليه، واقتناده إلى معيته ونصره وتأييده، وقضاء حوائجه، واليقين بأن الخير كله بيده، ومفاتيح العطايا والأرزاق بإذنه، فيعيش المسلم المتوكل على ربه راضياً مستعيناً بربه في كل أموره، أخذاً بالأسباب، راضياً عن أقدار الله تبارك وتعالى.

شؤونه، لتغيرت أمور حياته وتيسرت له الأسباب، فكم من عبد فوّض أمره لله فكفاه الله ما أهمه! وسر العبودية في التوكل على الله أنه دليل على صحة إيمان المسلم وصلاح قلبه، فالتوكل اعتراف العبد بربوبية الله، وتسليمه كل أموره للخالق الواحد، واليقين بأنه المتصرف بجميع الأمور، والمدبر الوحيد لجميع الأحوال، صغيرها وكبيرها.

ولذا كان التوكل على الله تعالى وصدق الاعتماد عليه، منزلة عظيمة من منازل العبودية لله رب العالمين، وتشتد الحاجة إلى التوكل على الله في ظل التقدم المادي الملموس، وسيطرة ضغوط الحياة على الكثير، ولذا ما أحوج المسلمين اليوم إلى التعبد بهذه العبودية، ولزومها في مسيرتهم في دروب الحياة، فلو حقق العبد المسلم التوكل على الله، وأخذ بالأسباب في كل

وتعلق القلوب بالله سبحانه من أعظم الأسباب التي يتحقق بها المطلوب ويندفع بها المكروه، ونقص الحاجات، وكلما تمكنت معاني التوكل من القلوب: تحقق المقصود بشكل أفضل.

التوكل على الله في القرآن والسنة:

التوكل على الله تعالى عبودية وعمل جليل لا يستغني عنه العبد المسلم في سائر أحواله. وقد جاء الأمر به في كتاب الله على أوجه مختلفة، وكذلك جاء في السنة النبوية المطهرة.

ففي القرآن الكريم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين بالتوكل عليه: فقال: «**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْقَرِيرِ الرَّحِيمِ** ﴿٣٠﴾ **أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ تَقُومُ** ﴿٣١﴾ **وَتَقُومُ فِي السَّجْدِ**» (الشعراء: ٢١٧-٢١٩). ووعد بكافة من يتوكل عليه، فقال تعالى: «**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**» (الطلاق: ٣). وفي مقام العبادة قال تعالى: «**وَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**» (هود: ١٢٣). وفي مقام الدعوة: قال تعالى: «**قَدْ تَوَلَّوْا قَتْلَ حَسْبِكُمْ إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**» (التوبة: ١٢٩).

وفي مقام الرزق قال الله: «**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا** ﴿١﴾ **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**» (الطلاق: ٣، ٢).

وفي مقام الحكم والقضاء قال الله: «**وَمَا آخِذْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**» (الشورى: ١٠).

وفي مقام الجهاد: «**إِن يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا عَاقِبَ لَكُمُ وَلَئِن جَعَلْتُكُمْ مِّنَ الَّذِينَ يَصْرِكُونَ لَآتِي بِصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**» (آل عمران: ١٦٠).

وفي مقام الهجرة والفسر: «**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا طَلَعُوا لِنُفُوسِهِمْ فِي الْآيَاتِ حَسَنَةً وَلِأُخْرِ الْأَخْرَجَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴿٥﴾ **الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» (النحل: ٤٢، ٤١).

وفي مقام العهود والمواثيق: «**قَالَ لَن أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا يَكُونُ لِأَنْفُسِكُمْ إِذَا لَحِطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴿٥٥﴾ **وَقَالَ نِسْكُوا لَنَا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَتَذَكَّرَ اللَّهُ أُولَئِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**» (يوسف: ٦٦).

والمأمل في أحوال كثير من المسلمين اليوم يجد بعض صور الانحراف في باب التوكل على الله؛ فبعضهم عندهم غلو في الأسباب ويعتمدون عليها، وانصرفت قلوبهم بالكلية إليها، والتفتت قلوبهم عن المسبب والخالق؛ حتى صار بعض الناس يعتقد الشفاء بالطبيب الحاذق، وحصول الرزق بالوظيفة، وحصول الأمن بإجراءات السلامة، وحماية الممتلكات بالتأمين. وهذا من تأثير سيطرة الحياة المادية ومظاهر المدنية.

كما أن كثيرا من المسلمين اليوم مقصرون في حسن توكلهم على الله تعالى، غافلة قلوبهم عن هذا الأصل العظيم، وعظيم فائدته. أما المؤمن الحق فهو عظيم التوكل على الرزاق؛ لعظم يقينه بقدرة الله وعلمه ورحمته ولطفه وسعة رزقه، فالتوكل تابع لليقين؛ كلما زاد اليقين في قلب المؤمن زاد توكله على الرحمن، وإذا نقص اليقين نقص التوكل.

تعريف التوكل على الله:

التوكل على الله: هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، والاعتقاد بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه سبحانه وتعالى. وقال سعيد بن جبير: "التوكل جماع الإيمان"؛ قال تعالى: «**وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ**» (المائدة: ٢٣)؛ فهو حال المؤمن في جميع الأحوال والأحيان. (العلوم والحكم لابن رجب: ص ٤٠٩).

وقال الإرجاني رحمه الله: التوكل هو الثقة بما عند الله، واليأس عما في أيدي الناس (التعريفات ص ٧٤).

قال سعيد بن جبير رحمه الله: "التوكل على الله نصف الإيمان".

وقال الإمام أحمد رحمه الله: "وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به".

والتوكل عمل قلبي ليس من أعمال الجوارح، قال الإمام أحمد رحمه الله: "التوكل عمل القلب".

والتوكل على الله يعني تفويض الأمر إليه سبحانه.

وفي كل ما يقوله الإنسان ويفعله ويعزم عليه يتوكل فيه على الله: ﴿لَا تَكُنْ مِنَ الْتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣)، والقرآن مليء بالآيات التي تحث على التوكل وتدعو إليه.

أما في السنة المطهرة؛ فقد ثبت عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" (رواه الترمذي والنسائي).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في بيان صفات السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: "هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون" (صحيح البخاري).

وفي سنن الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خرج الرجل من بيته فقال بسم الله وتوكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ قال: «يُقال حينئذ هُديت وكفيت ووُقيت فتتنحى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر كيف لك برجل قد هدي وكفي ووُقي».

التوكل والأخذ بالأسباب

من مقتضى التوكل وشرط صحته: العمل بالأسباب النافعة المأذون بها شرعاً؛ لأن الشارع الحكيم ربط بين التوكل والعمل بالأسباب، فلا يجزئ التوكل، ولا ينفع العبد إلا بالأخذ بالأسباب، ولا تنافي مطلقاً بين التوكل والعمل بالأسباب؛ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي حَمَلَكُمْ فِي الْأَرْحَامِ دَوْلًا فَاقْشَا فِي مَنَاطِكِكُمْ وَلَكُمْ مِنْ رَبِّهِ الشُّرُكُ﴾ (الملك: ١٥)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (النساء من الآية: ٧١)؛ فأمر بالمشي والسعي وأمر بأخذ الحذر والاستعداد للعدو.

ولذا فالتوكل على الله تعالى بمعناه الصحيح هو صدق اعتماد القلب على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب المشروعة، ولذا كان الأخذ بالأسباب هو هدي سيد المتوكلين على الله -صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره؛ إذ عدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد. وفي حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رجل: يا رسول الله أعقلها وتوكل، أو أطلقها وتوكل؟ قال: "اعقلها وتوكل" (رواه الترمذي وحسنه الألباني).

وأما عدم السعي وترك الأخذ بالأسباب فليس من التوكل في شيء، وإنما هو اتكال أو تواكل حذرنا منه الإسلام.

في الختام: التوكل على الله حقيقة أن يفوض العبد أمره لله ويسلم حاله له، وأن يعتمد على ربه في قضاء حاجته ويثق به. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "التوكل هو الثقة بالله، وصدق التوكل أن تثق في الله وفيما عند الله، فإنه أعظم وأبقى مما لديك في دنياك".

وحسن التوكل على الله تعالى له أثر عظيم في سعادة المرء وتحقيق مطالبه وحصول الرضا والاطمئنان في قلبه ووقايته من الشرور والفتن؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر: ٣٦).

وإذا اعتمد العبد بكليته على الله وأحسن التوكل عليه وبذل وسعه في تعاطي السبب؛ تحقق مطلبه بإذن الله، ولو كان مقصراً في العمل، أو متعاطياً سبباً ضعيفاً لا يؤثر أثراً كبيراً في العادة. وإذا علم الله من العبد صدقه في اللجأ إليه والاعتماد عليه وحده، كفاه وأواه وستره وأعطاه، ولا حرج على فضل الله تبارك وتعالى.

نسأل الله أن يرزقنا حسن التوكل عليه، اليقين بقدرته، والثقة به سبحانه وتعالى.

الحكمة من الصيام

أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله.

والصلاة والسلام

على رسول الله:

وبعد: فإن من أسماء الله تعالى: الحكيم.

والحكيم هو الذي يتصف بالحكمة. والحكمة

إتقان الأمور ووضعها في موضعها. ومقتضى هذا

الاسم من أسمائه تعالى أن كل ما خلقه أو شرعه

فهو لحكمة بالغة، علمها من علمها وجهلها من

جهلها.

إن الله - سبحانه وتعالى - لم يفرض علينا الصيام،

ويمنعنا عن الطعام والشراب التي أحلها لنا

ليعذبنا أو يعنتنا، فحاشا لله من ذلك. ولكن

للصيام الذي شرعه الله وفرضه على عباده حكما

عظيمة وفوائد جمة.

وأولى هذه الحكم وأجلها أن الله إنما شرع الصيام

وفرضه لتحقيق التقوى، والتدريب على الطاعات.

فرمضان من مواسم الخيرات التي امتن الله -

تعالى - بها على عباده: ليقوى إيمانهم، وتزداد

فيه تقواهم. وتعمق صلّتهم بربهم. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَقْوَى﴾ (البقرة: ١٨٣).

ففي رمضان من العبادات والأعمال الصالحة

ما يجعل النفوس تنقاد إلى رب العالمين، فتزكو

النفوس، وتطهر القلوب، وتعيش الأرواح أجواء

إيمانية مفعمة بالبركات والرحمات.

ومن أهم الحكم التي شرع من أجلها صيام شهر

رمضان ما يلي:

١ - تربية النفس على التقوى:

تدريب النفس على تحقيق التقوى والخوف من

الله سبحانه وتجنب مساخطه، والالتزام بطاعته

من أسمى أهداف فريضة الصيام. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى

الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَقْوَى﴾ (البقرة: ١٨٣).

قال الإمام الرازي: «بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَنَّ

الصُّومَ يُورِثُ التَّقْوَى لِمَا فِيهِ مِنْ انْكِسَارِ الشَّهْوَةِ

وَانْقِمَاعِ الْهَوَى: فَإِنَّهُ يَرُدُّعُ عَنِ الْأَشْرِ وَالْبَطَرِ

وَالْفَوَاحِش. وَيَهْوِي لِدَاثِ الدُّنْيَا وَرِثَايَتِهَا: وَذَلِكَ

لَأَنَّ الصُّومَ يَكْسِرُ شَهْوَةَ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ، فَمَنْ أَكْثَرَ

الصُّومِ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَيْنِ وَخَفَّتْ عَلَيْهِ مَوْتُهُمَا.

فكان ذلك رادعا له عن ارتكاب المحارم والفواحش،

ومهوئا عليه أمر الرياسة في الدنيا وذلك جامع

لأسباب التقوى فيكون معنى الآية فرضت عليكم

الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم

في كتابي «مفاتيح الغيب ٥/ ٢٤٠».

٢- تربية النفس على التوبة:

عبر عام طويل يحمل العبد على ظهره من الذنوب والمعاصي ويقع في مخالفات كثيرة، والذنوب تमित القلوب، وإذا اعتاد العبد على الذنب استسهله وخاض في غماره، فيظلم قلبه، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» (المطففين: ١٤). (سنن الترمذي (٣٣٣٤).

قال المباركفوري: «وقوله: (نكتة سوداء) أي جعلت في قلبه نكتة سوداء أي أثر قليل كالنقطة شبه الوسخ في المرأة والسيف ونحوهما، ويختلف على حسب المعصية وقدرها، والحمل على الحقيقة أولى من جعله من باب التمثيل والتشبيه؛ حيث قيل شبه القلب بتوب في غاية النقاء والبياض والمعصية بشيء في غاية السواد أصاب ذلك الأبيض فبالضرورة أنه يذهب ذلك الجمال منه، وكذلك الإنسان إذا أصاب المعصية صار كأنه حصل ذلك السواد في ذلك البياض». (تحفة الأحوذى ١٧٨/٩).

ولذلك كان تحصيل المغفرة من أهم معالم تربية النفس في رمضان، فمن خرج رمضان غير مغفور الذنب، فالوعيد في حقه شديد، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم أنسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يذخله الجنة». (صحيح سنن الترمذي للألباني ٣٥٤٥).

قال المباركفوري: «وقوله: (رغم أنف رجل) أي: لصق أنفه بالتراب كناية عن حصول الذل. الرغام وهو التراب هذا هو الأصل ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف والانتقياد على كره. انتهى».

وهذا إخبار أو دعاء والمعنى بعيد وعلى العاقل أن يتمكن من إجراء كلمات معدودة على لسانه فيفوز بها فلم يغتنمه تحقيق أن يذله الله، ثم أنسلخ رمضان أي انقضى قبل أن يغفر له أي بان لم يتب أو لم يعظمه بالمبالغة في الطاعة حتى يغفر له، فلم يذخله الجنة لعقوقه وتقصيره في حقهما». (تحفة الأحوذى ٣٧٢/٩).

وقال المناوي «رغم أنف من علم أنه لو كف نفسه عن الشهوات شهراً في كل سنة، وأتى بما وُظف له فيه من صيام وقيام، غفر له ما سلف من الذنوب، فقصّر ولم يفعل حتى أنسلخ الشهر ومضى، فمن وجد فرصة عظيمة بأن قام فيه إيماناً واحتساباً، عظمه الله ومن لم يعظمه حقره الله وأهانته». (فيض القدير ٣٤/٤).

إن رمضان فرصة نادرة ثمينة فيها الرحمة والمغفرة، ودواعيها متيسرة، والأعوان عليها كثيرون. وعوامل الفساد محدودة، ومردة الشياطين مصفدون، ولله عتقاء في كل ليلة، وأبواب الجنة مفتحة، وأبواب النيران مغلقة، فمن لم تنله الرحمة مع كل ذلك فمتى تناله إذن؟! وإذا لم يغفر له في رمضان فمتى يغفر لمن لا يغفر له في هذا الشهر؟! ومتى يقبل من رد في ليلة القدر؟! ومتى يصلح من لا يصلح في رمضان حتى يصلح من كان به فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان، من فرط في الزرع في وقت البدار لم يحصد يوم الحصاد غير الندم والخسارة. (لطائف المعارف، لابن رجب ص ٢١١ بتصرف يسير).

٢- تربية النفس على العفو والصبر:

من الأمور التربوية التي يجب أن يخرج بها العبد من رمضان أن يبتعد عن أذى الناس، ويسلم المسلمون من لسانه ويده، فلا ينبغي للعبد أن يصوم رمضان وهو واقع في الغيبة والنميمة والسب والشتم والكذب وهي معاص يجب الحذر منها واجتنابها من الصائم وغيره؛ إذ إنها تجرح الصوم وتضعف الأجر؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به، والجهل؛ فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه» (أخرجه

البخاري (٥٧١٠). ولقوله صلى الله عليه وسلم: «الصَّيَامُ جَنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَاءَ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ: فَلْيَقُلْ: إِنِّي أَمْرُؤُ صَائِمٌ» (أخرجه البخاري ١٨٠٥).

فالصوم ليس مجرد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من الفجر حتى غروب الشمس كلاً، فهناك حكم وأسرار هذا بعضها، لكننا نرى كثيراً من الناس تصوم بطنه ولا تصوم جوارحه. فيصوم عن الحلال المباح، ويتناول ما حرم الله من المنكرات كقول الزور وفعل الزور. فلا يتورع بلسانه عما حرم الله، ولا يغيض بصره كذلك عن المحرمات، ويقع بيده ورجله في المحرمات، بل ربما يفطر عند إفطاره على كسب محرم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وان مما يستجلب العبد عفو الله عنه بعفوه عن الناس، ولين الجانب معهم، وخفض الجناح لهم. فعن عائشة أنها قالت: (يا رسول الله أرايت إن وافقت ليلة القدر ما أدعوك؟ قال: تقولين: اللهم إنيك عفو تحب العفو فاعف عني). (صحيح الجامع ٤٤٢٣).

قال ابن رجب: «والعفو من أسماء الله تعالى وهو الذي يتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لأثارها عنهم، وهو يحب العفو. فيحب أن يعفو عن عباده، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض؛ فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته.. (لطائف المعارف لابن رجب ص ٢٢٨).

٤- الشعور بوحدة الأمة:

من الأمور التربوية في رمضان هو الشعور بوحدة الأمة وجماعية الطاعة، فلو أن الله تبارك وتعالى كلف كل واحد منا بصيام ٣٠ يوماً وحده وقيام ٣٠ ليلة منفرداً عن حوله، لوجد صعوبة كبيرة وكان هذا العمل فيه مشقة عظيمة، ولكن من رحمة الله تبارك وتعالى بالأمة أن جعل الطاعة جماعية، ففي رمضان يصير الغالب على

المجتمع حرصه على الصيام مع أعمال الطاعة والخير والبر، فالمساجد تمتلئ، وأعمال البر والصدقات يتسابق فيها المتسابقون، والأخلاق السمحة تفرض نفسها، والكل يقرأ القرآن ويجلسون في المساجد، وما ذلك إلا بما أودعه الله في هذا الشهر من بركات، وتيسيره للناس سبل الخير عن غيره من الشهور.

وأنت تصوم هذا العام وتفطر على ما رزقك الله من خيره وفضله، تذكر إخوانك المبطلين في كل مكان، في أرض الشام وبورما وغيرها، فاستشعر معاناتهم وآلامهم، وابذل لهم من مالك ودعائك ما تستطيع، واحمد ربك على نعمة العافية.

٥- حمية للجسد:

من رحمة الله تبارك وتعالى بالعباد أن جعل الصيام وقاية وحماية وتنظيفاً للبدن مما فيه من سموم وأدواء، ففي الصوم صحة البدن، وخلوصه من الأخلاط الرديئة.. وفي الصوم إضعاف للشهوات التي تزدد مع الأكل والشرب وإطلاق النظر، فيأتي الصيام ليكسر هذه الشهوات، فيحفظ الإنسان جوارحه.

إن البدن طوال العام مع العمل يكل ويمل، وقد تصاب أجهزة الجسم بالآلام والأسقام، والأفضل أن تستريح الأعضاء بعضاً من الأوقات لتستعيد نشاطها وقوتها مرة أخرى، فمن رحمة العزيز العليم أن جعل للمعدة وقتاً تستريح فيه كما يستريح غيرها من الأعضاء.

وبامتناع الإنسان عن الشهوات بالصوم المشروع؛ ترتقي نفسه وتسمو روحه، وكأنها تقترب من الملأ الأعلى الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون؛ فيكون هذا السمو الروحي، وكسر حدة الشهوات عاملاً مهماً ليتخلص المرء من حصار الأفات المهلكة.

٦- الصوم في الحر واستدارة الزمان:

الصوم في الحر ومع طول النهار مدرسة عظمى في الصبر، وفيها من الأجر الكثير من صبر على ذلك،



وقد شاء الله سبحانه أن يجعل الشهر القمري رمضان محلاً للصيام. ولهذا الشهر علامته الكونية الكبيرة، القمر بدءاً وانتهاءً يحمل في طياته عوامل الوضوح والثبات، فلا تستطيع سلطة أو جماعة أن تخفيه أو تحرف المسلمين عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبي عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين». (أخرجه البخاري ١٩٠٩، ومسلم ١٠٨١).

واختيار السنة القمرية في التوقيت له فيها حكم عظيمة، فالسنة القمرية أقل من السنة الشمسية بحوالي عشرة أيام، فعلى هذا يتقدم شهر رمضان كل عام عنه في السنة الماضية عشرة أيام، وعلى هذا ففي خلال ستة وثلاثين عاماً لا يبقى يوم من أيام السنة إلا وقد صامه المسلم، يشهد له بصومه لربه.

اليوم القصير.. واليوم الطويل.. واليوم الحار.. واليوم البارد.. وبذلك يتساوى المسلمون في كل أقطار الدنيا في مقدار الصيام وشدته، ولولا هذا لكان نصيب أهل المناطق الحارة أشد من نصيب أهل المناطق الباردة، وناس يصومون يوماً طويلاً أبداً الدهر، وناس يصومون يوماً قصيراً.

ومن رحمة الله بعباده أن منح الناس في رمضان وقتاً يعوضون فيه كل ما فقدوه في صيام اليوم من حاجة الجسد، وذلك بإباحة الطعام والشراب والنكاح ليلاً، ومنعه منهم نهاراً، وبذلك يتمحض الصيام نفعاً خالصاً للإنسان بدنياً ونفسياً.

ويمكن تلخيص هذه الحكم فيما يلي:

١- الصوم عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه: بترك محبوباته المجهول على محبتها من الطعام والشراب والنكاح؛ لينال بذلك رضى ربه والفوز بدار كرامته، فيتبين بذلك إثارة لمحوبات ربه على محبوبات نفسه وللدار الآخرة على الدار الدنيا.

٢- الصيام سبب للتقوى إذا قام الصائم بواجب

صيامه، فالتقوى هي الغاية الكبيرة من الصوم؛ فالصائم مأمور بتقوى الله- عز وجل-، وهي امتثال أمره واجتناب نهيه، وهذا هو المقصود الأعظم بالصيام، وليس المقصود تعذيب الصائم بترك الأكل والشرب والنكاح.

إن المؤمنين المخاطبين بالقرآن العظيم يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم، والصوم أداة من أدواتها وطريق موصل إليها؛ فالتقوى هي التي توقظ القلوب الشاردة لتؤدي هذه الفريضة طاعة لله، وإيثاراً لرضاه، والتقوى هي التي تدفع العبد ليحرس صومه لئلا يفسده بالمعصية.

٣- الصيام تربية لنفس المسلم، وتهذيب لأخلاقه، وتقوية لسلوكه، إذا راعى العبد آدابه وسننه وأحكامه أثر تائيداً بالغاً فيه، ويظهر ذلك في عباداته وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته.

٤- الصوم هو مجال تقرير الإرادة الجازمة، ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد، كما أنه استعلاء على ضروريات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها، وهذه كلها عناصر لازمة في إعداد النفوس واحتمال مشقات الطريق المقروش بالعقبات والأشواق، والذي تنتشر على جوانبه الرغبات والشهوات، فالصوم أعظم طريق لأذلال النفس، والسيطرة عليها، والتدرب على ضبطها، وقيادتها، وقد فهم السلف هذا الأمر جيداً؛ فكان أحدهم إذا أراد أن يعاقب نفسه على ذنب؛ كان يعاقبها بالصيام، ولضترات طويلة من السنة.

إن الصوم يمكن الإنسان من قيادة نفسه لما فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، ويبعده عن أن يكون عبداً لشهواته لا يتمكن من منع نفسه عن لذاتها وشهواتها.

نسأل الله أن يعيننا على اغتنام شهر رمضان، وأن يرزقنا القبول،

والحمد لله رب العالمين.

وصايا الآباء للأبناء

إعداد: أ. عبد العزيز مصطفى الشامي

وهذا ذم في الحقيقة وعيب لمن لا هم له إلا الدنيا. فهناك فريق من الناس همّهم الدنيا فقط، فهو حريص عليها، مشغول بها. وقد كان قوم من الأعراب يجيبون إلى الموقف في الحج فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً.. وورد عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أن الآية نزلت في هذا الفريق من الناس.. ولكن مدلول الآية أعم وأدوم.. فهذا نموذج من الناس مكرور في الأجيال والبقاع. النموذج الذي همّهم الدنيا وحدها. يذكرها حتى حين يتوجه إلى الله بالدعاء؛ لأنها هي التي تشغله، وتملأ فراغ نفسه، وتحيط عالمه وتغلظه عليه.. هؤلاء قد يعطيهم الله نصيبهم في الدنيا- إذا قدر العطاء- ولا نصيب لهم في الآخرة على الإطلاق!

وهناك فريق آخر موصول بالله، يريد الحسنه في الدنيا ولكنه لا ينسى نصيبه في الآخرة فهو

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد:

فلا شك أن الوصية في الدين، والتناصح بين الناس عبادة جليلة، ولكنها مع الأسف مهجورة في كثير من البيوت، ومنسية عند كثير من الأسر، وشأن الوصية مهم وجليل، ولكن أعجب ما في الأمر أن وسائل الإعلام المعاصرة من إذاعة وتليفزيون وصحافة وغيرها، قرّمت من شأن الوصية، وأضعفت من دورها، حتى انزوى دورها في نواهد ومجالات الدنيا فقط، فنشأ الصغير وشاب الكبير على الوصية بالدنيا عملاً وحرصاً وأمناً، وصار الأب والأم في كثير منهم لا يوصي أبناءه إلا بشيء من شئون الدنيا، وقد عاب الله على أقوام لا يذكرون إلا الدنيا ولا يسألون ربهم سواها، فقال جل وعلا: ﴿فَمَنْ النَّكَاسُ مِنْكُمْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَدْ عَدَّتْ النَّارُ﴾ (البقرة: ٢٠٠-٢٠١).



يقول: «ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»؛ فهم يطلبون من الله الحسنة في الدارين، ولا يحددون نوع الحسنة. بل يدعون اختيارها لله، والله يختار لهم ما يراه حسنة وهم باختياره لهم راضون.. وهؤلاء لهم نصيب مضمون لا يبطل عليهم. فالله سريع الحساب.

إن هذا التوجيه الإلهي يؤكد أن من اتجه إلى الله وأسلم له أمره، وترك لله الخيرة. ورضي بما يختاره له الله، فلن تفوته حسنات الدنيا ولا حسنات الآخرة. ومن جعل همه الدنيا فقد خسر في الآخرة كل نصيب.

وفي مقابل صورة الدنيا والوصية بها والحرص عليها، ذكر الله لنا وصية لقمان لابنه بوصايا جامعة، تربوية نافعة، قال تبارك وتعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِذَا عُذِّقْتَ بِثِقَالِ حَيَاةٍ مِنْ خَدِّكَ فَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي النَّسُوتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ يَسْمَعْ أَهْمُ الْمَسْكُوتِ ۝ وَأَمَّا بِالْعُرْوَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَسْبَابِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ۝ وَلَا تَصْغُرْ حَتَّى تَكُونَ لِلنَّاسِ لَأْمِسٌ وَفِي الْأَرْضِ مُرْسَا ۝ إِنَّ اللَّهَ لَجَمِيلٌ فِي خُفْيِهِ ۝ وَأَقْبَضُ فِي مَشِيكِ ۝ وَأَغْضَضُ مِنْ صَوْنِكَ ۝ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَمْثَلِ لَصَوْنُ الْقَبْرِ ۝ (لقمان: ١٦-١٩).

فهي كما نرى وصايا جامعة، في العقيدة كما في الآلية الأولى في إشارتها لوحداية الله وقدرته المطلقة فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض، وهو اللطيف الذي يجري رحمته تحت أستار الخفاء، وأنه هو الخبير الذي خُبر مخلوقاته في شتى شئونهم؛ عدداً وقدرًا وحياة وموتاً، فيوصي ابنه بتعظيم الله والإيمان بقدرته غير المحدودة. ومن ثم طاعته واتباع منهجه المعظم.

وفي الآية الثانية يوصيه بأهمّات العبادات من إقامة الصلاة والخضوع فيها والخشوع. ولا يقتضي بالإصلاح في نفسه حتى يدعو غيره. وأن يحمل مشعل الإصلاح في مجتمعه فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ويصبر على ذلك إن مسه من ورائه أذى من الخلق.

ثم يوصيه في الآية الثالثة بالبعد عن مساوئ
الآداب العامة في المجتمع، وذلك بعدم احتقار
الغير ولا التكبر على الناس، والاعتدال في
عواطفه ومشاعره، وعدم الفخر المظفي ولا
التكبر المزري وألا يكون معجباً بنفسه مزيئاً على
الآخرين، والتخلص من هذه المساوئ لا بد له من
علم وعدل، علم بالنفس والآخرين والعدل مع
النفس والآخرين.

ثم يوصيه في الآية الرابعة بالتوسط والاعتدال ومراعاة آعين الناس وسمعهم، فلا يمشي مشية المضطرب العجول ولا مشية المانع الكسول، ولا يحدث تلوثاً سمعياً ولا ضوضاء يؤذي الناس بصوته العالي، ولا يشق عليهم بصوته الخفيض غير المسموع، بل التوسط في الأمور والاعتدال في الأخلاق مفتاح لمحبة الخالق وقبول المخلوقين.

أمثلة للتوصايا المعاصرة:

صار كثير من الآباء يحرصون على وصية أبنائهم بالدنيا، فتشأ كثير من الصغار على حفظ أمثال شعبية وأقوال قديمة على أنها مسلمات وقواعد في الحياة، فبعض الآباء يذكر ابنه بين الحين والآخر بأن من معه قرش يساوي قرشاً، فيغرس فيه من صغره الميزان المالي لوزن الناس، فلا عجب أن يعجب بخاله فلان دون عمه الآخر لأنه طبق المثل الذي حفظه من أسرته على أقاربه، وكان الأولى أن تنصرف عناية الآباء إلى إرشاد أبنائهم إلى الميزان الأخروي في النظر للأمور، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ..

وأخري وصي ابنه ويسمعه كثيراً يذكر بأن الأقارب
عقارب، فينشأ مبتور الصلات الاجتماعية كارهها
لأقاربه، وآخر يذكر الزوجة أو النساء عموماً
أمام أولاده بأوصاف غير مقبولة، وبكلمات حق
يُريد بها باطلاً، كان يقول لهم مثلاً عن النساء:
ناقصات عقل ودين، هكذا يسوقها لهم جملة
عامة ناسباً إياها إلى الشرع دون وضعها في أطرها
وضوابطها الشرعية، من أن نقصان العقل إنما هو
في أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل،

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنَّحَى وَتَوَّصُوا بِالنَّهَى.

ونقلت لنا كتب السنة شيئاً من وصايا المصطفى لأبنائه، فمن ذلك وصيته لابنته فعن أسامة بن زيد قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ وَتَحْبِرُهُ أَنْ صَبِيًّا لَهَا - أَوْ ابْنًا لَهَا - فِي الْمَوْتِ فَقَالَ لِلرَّسُولِ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى فَمَرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ» (متفق عليه).

ومن ذلك ما صح عن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال: ألا تَصْلِيَانِ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا يَبْعَثُنَا. فَأَنْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئاً، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلِّ يَضْرِبُ فَخْذَهُ وَهُوَ يَقُولُ: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» (متفق عليه). فأوصاها مع زوجها وهي متزوجة وعند غيره ولم ينس حقها في النصيحة والاهتمام.

وقد أوصى ابن عمه الغلام بوصايا نفيسة ودرر رائعة، حفظها وبلغها كأروع ما تكون الوصية والتوجيه، وحسن رعاية الصغار وتربيتهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف. (الترمذي ٢٥١٦ وصححه الألباني).

فما أحوجنا لإعادة صياغة التناصح والوصايا بين الآباء والأبناء. نسأل الله أن يربي لنا أبناءنا ويصلحنا وإياهم.

وأن نقصان الدين يتمثل في كونها تظل فترة من عمرها لا تصلي وذلك لعذر الحيض والنفاس، وأنهن معذورات في ذلك.

وأخر يوصي أبناءه بأن من شتمك اشتمه، ومن ضربك اضربه، ومن.. ومن.. دون توجيه أو تفصيل.. وأمر تلك الوصايا يطول..

وهناك بعض الآباء يهتمون بجسد الأبناء وتغذيتهم أكثر من توجيههم لخيري الدين والدنيا، فتراهم لا يوصي الأبناء ولا أمهم إلا بحسن تغذيتهم، والقيام على رعاية أجسامهم حتى تنمو، ولكنها تتضخم في أجساد ثمينة وعقول صغيرة.

ومن الأمور المهمة أن بعض الآباء يعتقد أنه بمجرد زواج ابنته، فإن حق وصيتها ونصيحتها قد زال من عليه، وأنها في عصمة زوج ينصحها ويوجهها حتى لو نصحها بباطل أو وجهها إلى محرم، تراهم يقولون: هي مع زوجها ويسلتون أيديهم من النصيحة لها أو وصيتها وتوجيهها، وهذا خطأ فالمعيار في الوصايا هي الوصايا الشرعية المقبولة.

تبنيات في أمر الوصية

إن كثيراً من الوصايا السابقة قد تكون مفيدة ونافعة إذا ما انضم لها أخواتها، من المقيدات والمحذرات، فليس عيباً أن يوصي الآباء أبناءهم من عيوب بعض الأقارب وأهمية الحرص على المال في غير بخل، وضرورة التحصيل الدراسي وأهمية القوة الجسدية، كل هذه الوصايا لا حرج فيها، ولكن الأهم من ذلك كلها أن يحرص الآباء على دين وخلق أبنائهم، وحسن توجيههم للخير وغرسه فيهم غرساً.

إن وصايا الآباء للأبناء عبادة أمر الله بها ضمن جماعة المؤمنين فإذا كنا مأمورين بإيصال الآخرين فإن أقربهم حقاً عليهم وأكدهم في هذه الحقوق الأهل والأبناء، قال تبارك وتعالى:

«وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِذْ الْإِنْسَانُ لَىٰ خَيْرٍ ﴿٢﴾ إِذْ أَلْبَسَ ثِيَابًا ﴿٣﴾



وقفات تربية مع رحيل شهر رمضان

اعداد /عبد العزيز مصطفى الشامي

لذلك فمن الأمور المهمة التي ينبغي أن يقف معها العبد مع رحيل رمضان؛ وصية النبي لعبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، فعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: "أخذ رسول الله بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل". وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك. (صحيح البخاري: ٦٤١٦). فالتبني -صلى الله عليه وسلم- يوصي عبد الله بن عمر وهو من آخر الصحابة موتاً، يوصي شاباً في العشرين من العمر بقصر الأمل والحذر من الدنيا.

إن من ملامح ختام شهر رمضان أن يتذكر الإنسان خواتيم الأعمال وخواتيم الأعمار، وألا يغفل عما يحمل من الآثام والأوزار. فكل شيء عند الله بأجل مسمى ومقدار، والعاقلة من انتبه وأخذ أهبطه، واستعد لسفر طويل، وإقامة طويلة في القبور، فيعمل لهذا اليوم ولا تشغله الدنيا بغرورها.

الوقفه الثانية: الجمع بين الإحسان والخوف

إن من تأمل أحوال الأنبياء والصحابة والصالحين وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، فهم جمعوا بين الإحسان والخوف، ونحن جمعنا بين الإساءة والأمن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
أما بعد: فينبغي للعاقل أن يقف مع أيام الله -تبارك وتعالى- وقفة متأمل، وأن يعتبر بمرورها، فقد أمر ربنا - سبحانه وتعالى- نبيه موسى -عليه السلام- أن يذكر قومه بأيام الله: فقال -تبارك وتعالى-: "وذكرهم بأيام الله أن في ذلك لآيات لكل صبار شكور" (إبراهيم: ٥)؛ أي: وذكرهم بنعم الله عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعهم بالكافرين؛ ليذكروا نعمه وليحذروا عقابه، أن في ذلك؛ أي: في أيام الله على العباد لآيات لكل صبار شكور؛ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة.

ومع رحيل شهر رمضان؛ فهذا تذكير ببعض الوقفات السريعة والمهمة التي ينبغي للمسلم أن يتفكر فيها:

الوقفه الأولى: الانتباه لمرور العمر والحذر من

الدنيا

إن عمر الإنسان هو كنز الحقيقي ورأس ماله، وإن تضييعه والتفريط في ساعاته وأيامه لمن الخسارة والغبن الذي يقع فيه كثير من الناس، وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ" (صحيح البخاري: ٦٤١٢).



وقد كان السلف -رحمهم الله تعالى- يحسنون في أعمالهم، ويتقون الله ما استطاعوا، وهم مع ذلك لا يُعجبون بعمل ولا يُفتنون ببناء الناس ولا محمداً الخلق.

قال ابن القيم -رحمه الله-: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والأخبار بها من لسانه، وشغله بروية ذنبه: فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة؛ فإن ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره. وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا كيف؟ قال: يعمل الخطيئة، فلا تزال نصب عينيه، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله، ويأدر إلى محوها، وانكسر وذلل لربه، وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويؤمن بها ويعتد بها، ويتكبر بها حتى يدخل النار. (طريق الهجرتين: ص ١٧٢).

وثبت عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه أنها قالت: قلت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم جلة: أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، أو لا يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو يخاف أن لا يقبل منه (رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وحسنه الألباني).

فهذه أم المؤمنين تظن أن الخائف ذا القلب الوجل هو إنسان أتى من الموبقات والكبائر ما يسخط الله عليه، ومثله يحق له الخوف، بل يجب، فصَحَّحَ لها النبي -صلى الله عليه وسلم- الفهم، وأرشداه إلى أن المتقين من عباد الله يجمعون مع الإحسان خوف عدم القبول، وقد خاف إبراهيم الخليل -عليه السلام- ورجا وطمع في القبول، قال تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (البقرة: ١٢٧).

وهناك مثل آخر من تواضع السلف، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه في سياق موت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهو حديث طويل وفيه: «وكان الناس لم تُصِبه مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمِئِذٍ؛ فَقَاتِلَ يَقُولُ: لَا بَأْسَ، وَقَاتِلَ يَقُولُ: أَخَافُ عَلَيْهِ،

فَأَتَى بِبَيْذِ فَشْرِيهِ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، ثُمَّ أَتَى بِلَيْنِ فَشْرِيهِ فَخَرَجَ مِنْ جَرْحِهِ: فَعَلِمُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَجَاءَ النَّاسُ فَجَعَلُوا يَبْشُرُونَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌ، فَقَالَ: أَبْشُرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَشَرَى اللَّهِ لَكَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَدِمَ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلَيْتَ فَعَدَلْتُ، ثُمَّ شَهِدْتُ. فَقَالَ عُمَرُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كِفَافٌ لِي عَلَيَّ وَلَا لِي (صحيح البخاري: ٣٧٠٠).

وهذا مثل آخر طيب فريد رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- قال: «أتى عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- يوماً بطعامه وكان صائماً؛ فقال: قَتَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَكَانَ خَيْرًا مِنِّي، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَا يَكْفِي فِيهِ إِلَّا بَرْدَةً، وَقَتَلَ حَمْزَةُ أَوْ رَجُلٌ آخَرٌ خَيْرٌ مِنِّي؛ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَا يَكْفِي فِيهِ إِلَّا بَرْدَةً، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَجَلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي. (صحيح البخاري ١٢٧٤).

بكى ولم يتناول طعام الإفطار وكان صائماً؛ عندما تذكر إخوة له صالحين سبقوه إلى الله تعالى، ولحسن ظنه بهم فضلمهم على نفسه، مع أنه أفضل منهم؛ فهو من العشرة المبشرين بالجنة -رضي الله عنهم جميعاً-.

وهذا صحابي آخر جليل هو عتبة بن غزوان -رضي الله عنه- يروى عنه الإمام مسلم في صحيحه أنه قال: أما بعد؛ فإن الدنيا قد أذنت بصُرم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصايبها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها؛ فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، ولقد رأيته سابع سبعة مع رسول الله ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أقدامنا، فالتقطت بردة فشققته بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بن نصفها؛ فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً (صحيح مسلم: ٢٩٦٧).

يقول: وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً، وهو سابع سبعة في الإسلام، رضي الله عن الصحابي الجليل عتبة بن غزوان،

ولنتعلم أن رؤية النفس والعُجب بالعمل أصل كل بلية ومجمع الرزايا.

الوقفـة الثالثة: علامة القبول

إن حاجة العبد لعبادة الله أكيدة، وهو لا يستغني عن ربه طرفة عين، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- «في القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى يحب الله الذي إن حصل للعبد؛ حصل له كل شيء، وإن فاته؛ فاتته كل شيء، فكما أنه سبحانه الغني على الحقيقة، ولا غني سواه، فالغنى به وبحبه هو الغنى في الحقيقة، ولا غنى بغيره ألبتة، فمن لم يستغن به عما سواه؛ تقطعت نفسه حسرات، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة وحضره كل سرور وفرح، والله المستعان (طريق الهجرتين؛ ص ٣٤).

وعليه فإن أبين علامة على القبول هي استمرار العبد على الخير والعمل الصالح بعد رحيل شهر رمضان؛ قال بعضهم: «ثواب الحسنه الحسنه بعدها، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بحسنة بعدها كان ذلك علامة على قبول الحسنه الأولى، كما أن من عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة كان ذلك علامة رد الحسنه وعدم قبولها».

ما أحسن الحسنه بعد السيئه تمحوها! وأحسن منها الحسنه بعد الحسنه تعقبها، وما أقبح السيئه بعد الحسنه تمحقها وتعفوها، فلا ترجع أخي إلى المعصية بعد رمضان، واصبر عن لذة الهوى بحلاوة الإيمان، واصبر لله تعالى يعوضك خيراً، قال الله تعالى: **(إِنَّ يَظُنُّكَ خَيْرًا يُوْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** (الأنفال: ٧٠).

وتلك قاعدة سنّها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (صحيح البخاري: ٦٤٦٤)، وقالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «وكان أحب الدين إليّ ما داوم عليه صاحبه» (صحيح البخاري: ٤٣).

إن استدامة الطاعة والمداومة على الأعمال الصالحة هي في الحقيقة من عوامل الثبات على دين الله وشرعه، قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)**

(الأحقاف: ١٣)، وإن ترك المحرمات والعمل بما يُوعظ به المرء من قبل خالقه ومولاه لأمر يحتاج إلى ترويض ومجاهدة من أجل الحصول على العاقبة الحميدة وحسن الفائدة.

الوقفـة الرابعة: بماذا نختم شهرنا؟

أمر الله عباده أن يختموا أعمالهم العظيمة بالاستغفار والتوبة، فبعد كل صلاة استغفار، فعن ثوبان -رضي الله عنه- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا أنصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: **«اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»** قال الوليد فقلت للأوزاعي كيف الاستغفار؟ قال تقول استغفر الله، استغفر الله (صحيح مسلم: ٥٩٢).

والحاج بعد نزوله من عرفة أمر بالاستغفار؛ قال الله تعالى: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم» (البقرة: ١٩٩). بل إن الله -تبارك وتعالى- أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يختم عمره المبارك بالاستغفار، فقال جل وعلا: **«إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»** (سورة النصر: ١-٣)، وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: **«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»** يتأول القرآن (صحيح البخاري: ٧٩٤).

وإن العبد ليتحسر على تفريطه، فبالأمس كنا ننتظر رمضان، وما نحن الآن نودعه، وهكذا تمضي الأعمار، وإنما العبد جملة من أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضه هذا رمضان يمضي، كما كان بالأمس يأتي، فسبحان من قلب الليل والنهار، وأجرى الدهور والأعوام، وفي ذلك معتبر للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

وبعد، فهذا رمضان تطوى صحائفه بأعمال العباد، ولا تنشر إلا يوم القيامة والحساب، ولا ندري أندرك رمضان القابل أم لا؟ فالله المستعان. فأسأل الله العليّ القدير أن يتقبلنا بقبول حسن، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أعمال القلوب في القآه والسنة

التوكل على الله تبارك وتعالى

اعداد /أ/ عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:
أما بعد: فإن التوكل على الله تعالى يُعدُّ من أجل أعمال القلوب، وأعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، بل هو من لوازم التوحيد الصادق، إذ لا يكتمل إيمان العبد حتى يعتمد بقلبه على الله وحده، ويُفوض إليه أمره كله، مع بذل الأسباب المشروعة التي أمر الله بها. ولذلك قرن الله تعالى التوكل بالآيمان في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجعله علامة على صدق المؤمنين، فقال سبحانه: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (المائدة: ٢٣).

حقيقة التوكل

عرّف العلماء التوكل بأنه: صدق اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، مع فعل الأسباب التي أذن الله بها.

منزلة التوكل في القرآن الكريم

ورد ذكر التوكل في القرآن الكريم في عشرات المواضع، مما

فالتوكل ليس مجرد كلمة تُقال، ولا أمنية تُتمنى، وإنما هو عبودية قلبية عظيمة تجمع بين قوة الثقة بالله، وحسن الظن به، وبذل الجهد في الأسباب المشروعة، مع اليقين بأن النفع والضرر بيد الله وحده.

يدل على عظيم مكانته، ومن ذلك قوله تعالى: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩)، فهذه الآية جمعت بين أمرين عظيمين: الأخذ بالأسباب من خلال العزم والتخطيط، ثم الاعتماد على الله بعد ذلك.

وقال سبحانه: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣)؛ أي: كافيته، وحافظه، وناصره، فلا يحتاج المتوكل إلى غير الله تعالى. وقال تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» (الأنفال: ٢)؛ فجعل التوكل من أوصاف المؤمنين الصادقين.

التوكل في السنة النبوية

جاءت السنة النبوية تؤكد أهمية التوكل على الله. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصاً، وتروح بطاناً» رواد أحمد والترمذي. وهذا الحديث من أعظم النصوص في بيان حقيقة التوكل؛ فالطير لا تبقى في أعشاشها منتظرة الرزق، وإنما تغدو صباحاً تبحث وتسعى، ثم تعود مساءً وقد رزقها الله، فجمعت بين السعي والاعتماد على الله.

وقال النبي صلى الله عليه عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا

على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» رواد الترمذي وصححه.

وفي الصحيحين أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأعقلها وأتوكل، أم أطلقها وأتوكل؟ فقال: «أعقلها وتوكل»؛ فهذا الحديث أصل في الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب.

وكان النبي صلى الله عليه وكان سيد المتوكلين. ومع ذلك كان يلبس الدرع في القتال، ويستشير أصحابه، ويعد العدة، ويتخذ الأسباب كلها، ثم يفضو النتائج إلى الله سبحانه.

كيف يحقق المسلم

عبودية التوكل؟

للتوكل الصحيح أركان وشروط يتحقق بها، من أهمها:

أولاً: معرفة الله تعالى؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد توكله عليه، فمن علم أن الله هو الرزاق، والكافي، والحفيظ، والقوي، والمتين، اطمأن قلبه إليه.

ثانياً: حسن الظن بالله؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا عند ظن عبدي

بي» متفق عليه. فالؤمن يحسن الظن بربه، ويوقن أن الله لا يخذله إذا صدق في اللجوء إليه.

ثالثاً: بذل الأسباب؛ الأسباب جزء من الشرع، وتركها ليس توكلًا، وإنما هو تواكل وعجز. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

رابعاً: تفويض النتائج إلى الله؛ يبذل العبد وسعه، ثم يرضى بما يقدره الله، لأنه يعلم أن الخير فيما اختاره الله، وإن خالف رغبة النفس. **خامساً:** دوام الدعاء والاستعانة بالله؛ فالتوكل كثير اللجوء إلى ربه، يعلم أن خزائن السموات والأرض بيده سبحانه.

الفرق بين التوكل والتواكل

يخلط بعض الناس بين التوكل والتواكل، والفرق بينهما واضح.

فالتوكل عبادة شرعية تقوم على الاعتماد على الله مع بذل الجهد والعمل والأخذ بالأسباب. أما التواكل فهو ترك الأسباب بحجة الاعتماد على الله،



وهذا مخالف للشرع والعقل. فالمرضى يراجع الطبيب ويتداوى، والطالب يذاكر، والتاجر يسعى في تجارتها، ثم يعتمد الجميع على الله في النتائج.

ثمرات التوكل

للتوكل آثار عظيمة في حياة المسلم، منها:

١- محبة الله تعالى: قال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩): وأعظم ما يتمناه المؤمن أن يكون محبوباً عند الله.

٢- كفاية الله للعبد: قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» (الطلاق: ٣): أي يكفيه في دينه ودنياه وآخرته.

٣- قوة القلب: فالمتوكل لا تهزه الأزمات، ولا تضعفه المصائب؛ لأنه يعلم أن الأمور كلها بيد الله.

٤- الطمأنينة والسكينة: إذا استقر التوكل في القلب زال كثير من القلق والخوف، لأن القلب صار معتمداً على الله لا على الأسباب وحدها.

٥- الرزق المبارك: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير»: فالتوكل على الله

مع السعي من أعظم أسباب الرزق.

٦- الشجاعة والثبات: كان الأنبياء أعظم الناس توكلًا، ولذلك كانوا أشجع الناس وأثبتهم في مواجهة الشدائد. قال تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (آل عمران: ١٧٣).

نماذج من توكل الأنبياء

لقد جسّد الأنبياء عليهم السلام أعلى مراتب التوكل: فأبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فجعل الله النار بردًا وسلامًا عليه. وموسى عليه السلام حين أدركه فرعون وجنوده قال قومه: «إِنَّا لَمُدْرِكُونَ»، فأجابهم بقلب الوثاق بالله: «كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ» (الشعراء: ٦٢).

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ففي الهجرة، وقد أحاط المشركون بالغار، قال لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» (التوبة: ٤٠): فكان هذا الموقف من أعظم صور التوكل والثقة بالله.

وسائل تقوية التوكل

من أهم الوسائل التي تعين

على تحقيق التوكل: الإكثار من قراءة القرآن والتدبر في آياته. ومعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته. وكثرة الدعاء والذكر. واستحضار نعم الله السابقة. والتأمل في قصص الأنبياء والصالحين. ومجاهدة النفس على تفويض الأمر لله تعالى. والرضا بقضاء الله بعد بذل الأسباب المشروعة.

إن عبودية التوكل من أجل العبادات القلبية، وهي ثمرة صدق التوحيد وكمال الإيمان. فالمؤمن يعيش بين الأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأسباب، فلا يغتر بقوته، ولا ييأس عند ضعف إمكاناته؛ لأنه يعلم أن خزائن كل شيء بيد الله سبحانه.

وحين يستقر التوكل في القلب، تتحول المخاوف إلى طمأنينة، والهموم إلى يقين، والعجز إلى قوة، ويصبح المسلم واثقاً بربه في جميع شؤونته، مردداً في كل أحواله: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ومن جعل الله وكيله، كفاه، وحفظه، ووفقه، وأعاناه، وفاز بخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّكُمْ مُؤْمِنِينَ» (المائدة: ٢٣).

والحمد لله رب العالمين.



أعمال القلوب في القرآن والسنة

الرضا عنه الله تبارك وتعالى

إعداد: أ/ عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإن الرضا عن الله تبارك وتعالى من أجل أعمال القلوب، وله تأثير كبير في حياة المسلم؛ فالرضا مقام إيماني رفيع يقوم على حُسن الظن بالله، والثقة بحكمته، والإيمان بكمال علمه وعدله ورحمته. ولذلك كان السلف الصالح يعدّون الرضا من أعلى منازل العبودية؛ لأنه يجمع بين كمال المحبة لله، وكمال التسليم له سبحانه وتعالى.

على قضاؤه، ولا ساخط على حكمه.

ثانياً: الرضا في القرآن الكريم
لقد تكرر ذكر الرضا في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، مما يدل على عظيم منزلته عند الله تعالى.

قال تعالى: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» (المائدة؛

فالرضا لا يعني أن الإنسان لا يشعر بالألم عند المصيبة؛ فالتنبي صلى الله عليه وسلم بكى عند وفاة ابنه إبراهيم، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضِي ربنا» (متفق عليه). وإنما المقصود أن يبقى القلب مُسَلِّماً لله، غير مُعْتَرِض

أولاً: معنى الرضا وحقيقته؛ الرضا في اللغة هو القناعة والقبول وعدم السخط. أما في الاصطلاح الشرعي فهو: سكون القلب إلى قضاء الله وقدره، وقبول أحكامه الشرعية والكونية دون اعتراض أو تضجر، مع حُسن الظن بالله تبارك وتعالى.



(١١٩): فهذه أعظم غاية يسعى إليها المؤمن: أن يرضى الله عنه. وأن يمتلئ قلبه رضا بالله رباً وحكماً ومُصِرفاً لأمره كله.

وقال سبحانه: **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**، (البقرة: ٢١٦): فهذه الآية تؤسس لمعنى الرضا، إذ تُذكر العبد بقصور علمه، وأن الخير الحقيقي قد يكون فيما يكرهه. وأن الله سبحانه هو العليم الحكيم.

وقال تعالى: **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ**، (التغابن: ١١): قال علقمة رحمه الله في تفسيرها: "هو الرجل تُصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسلم".

وقال سبحانه: **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**، (البقرة: ١٥٣): والصبر بداية الطريق، أما الرضا فهو منزلة أعلى؛ إذ يجمع الصبر مع طمأنينة القلب وحسن التسليم لله تبارك وتعالى.

ثالثاً: الرضا في السنة النبوية

وردت في السنة النبوية نصوص كثيرة تحث على الرضا عن الله تبارك وتعالى

والرضا بأحكامه الشرعية والقدرية، وتبيين فضل ذلك الرضا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الايمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً" (رواه مسلم): فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الرضا بالله تعالى وبشرائع الإسلام وبسنن الرسول ومنهجه من أسباب كمال الايمان واستشعار حلاوته.

وقال الامام ابن القيم رحمه الله: "رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه. فهو محضوف بنوعين من رضاه على عبده. رضا قبله أوجب له أن يرضى، ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه؛ ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين. نسأل الله أن يقسم لنا من رضاه ما يبلغنا به غاية المُنَى، إنه ولى ذلك والقادر عليه" (مدارج السالكين: ٢/٤٨٠).

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب

قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط" (رواه الترمذي وصححه).

وهذا الحديث يبين أن الابتلاء ليس دليلاً على غضب الله، بل قد يكون علامة محبته لعبده إذا قابله بالايمان والرضا.

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "وأسألك الرضا بعد القضاء" (رواه أحمد والنسائي بسند صحيح): وهذا الدعاء من أعظم الأدعية؛ لأن الرضا الحقيقي يظهر بعد وقوع البلاء، لا قبله فقط.

رابعاً: الرضا عن الله جل وعلا

من أعظم أنواع الرضا: أن يرضى العبد بالله رباً، فيؤمن بأنه سبحانه كامل الأسماء والصفات، حكيم في أفعاله، رحيم بعباده، لا يقدر شيئاً إلا لحكمة.

والرضا بالله يقتضي أموراً كثيرة، منها:

الرضا بتدبيره.
الرضا بعطائه ومنعه.
الرضا برزقه وقسمته.
الرضا بحكمه وعدله.

حسن الظن به في جميع الأحوال.

فالمؤمن يعلم أن الله لا

يمنعه إلا ليعطيه خيراً، ولا يؤخر عنه شيئاً إلا لحكمة، ولا يبتليه إلا ليرفع درجته أو يكفر سيئاته.

وقد قال تعالى: **اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**، (الزمر: ٣٦)؛ فإذا امتلأ القلب بهذه الحقيقة، زال عنه القلق والاضطراب، واستقر فيه اليقين.

خامساً: الرضا بشريعة الله وأحكامه

من مقتضيات الإيمان أن يرضى المسلم بأحكام الله وتشريعاته، وأن يعتقد أنها أكمل الأحكام وأعدلها.

قال تعالى: **فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**.

(النساء: ٦٥)؛ فالآية ثم تكتف بالتحاكم إلى شرع الله، بل اشترطت انتضاء الحرج من القلب، وهذا هو الرضا الحقيقي.

وقال سبحانه: **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُومُ يُوقِنُونَ**، (المائدة: ٥٠)؛ فالرضا بالشريعة يعني قبول أوامر الله ونواهيه بحبة، سواء وافقت هوى النفس أو خالفته، لأن المؤمن يعلم أن

الله لا يأمر إلا بما فيه الخير، ولا ينهى إلا عما فيه الضرر.

سادساً: الرضا عند

الابتلاء والمصائب

الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وقد أخبر الله بذلك فقال: **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** (البقرة: ١٥٥).

وعند نزول المصيبة تتفاوت أحوال الناس؛ فمنهم الساخط المعترض، ومنهم الصابر الذي يمنع نفسه من الجزع، ومنهم الراضي، وهو الذي يطمئن قلبه إلى قضاء الله، مع إحساسه بألم المصيبة. والرضا عند المصائب لا يعني ترك الأسباب المشروعة لدفع الضرر أو طلب العلاج، بل يجمع بين الأخذ بالأسباب والتسليم لقضاء الله.

ومن أروع أمثلة الرضا عن الله تعالى ما قاله عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر". وهذا هو كمال الإيمان؛ أن يصبح قلب العبد مطمئناً لما يختاره الله له، ولكن لا يعني ذلك ترك الأخذ بالأسباب المشروعة، وإنما يعني أن

يجتهد المؤمن في الأخذ بأسباب الإصلاح في دينه ودينه؛ فإذا أصابه شيء بعد بذل الجهد المطلوب، فليرضَ ويسلم لما اختاره الله له.

سابعاً: كيفية تحقيق

مقام الرضا؟

تحقيق الرضا يحتاج إلى مجاهدة للنفس، وتربية للقلب، ومن أهم الوسائل:

١- معرفة الله بأسمائه وصفاته؛ كلما ازداد العبد معرفة بأن الله حكيم، ورحيم، ولطيف، وعليم، ازداد رضاه بقضائه.

٢- تقوية الإيمان بالقدر؛ فالإيمان بأن كل ما يقع في الكون إنما هو بعلم الله ومشيئته يورث القلب الطمأنينة. قال تعالى: **كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** (القمر: ٤٩).

٣- تدبر القرآن؛ فالقرآن مليء بالقصص التي تبين أن العاقبة للمتقين، وأن الفرج يأتي بعد الشدة، كما في قصة يوسف عليه السلام، وقصة موسى عليه السلام، وغيرهما من قصص الأنبياء.

٤- الاكثار من الدعاء؛ ومن أعظم الأدعية: "اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة

النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقاءك“.

٥- تَذَكَّرْ نعم الله تعالى؛ فإذا استحضرت الإنسان كثرة نعم الله عليه، هان عليه ما فاتته من أمور الدنيا. قال تعالى: **وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** (إبراهيم: ٣٤).

٦- النظر إلى من هو أقل في أمور الدنيا؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ”انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم“ (متفق عليه).

٧- صحبة الصالحين؛ فمجالسة أهل الإيمان واليقين تُعين على الرضا، لأنهم يذكرون بالله، ويُثَبِّتُونَ القلوب عند الشدائد.

٨- استحضار أن الدنيا دار ابتلاء؛ فالْمُؤْمِنُ لَا يَنْتَظِرُ حياة تخلو من المشقة، وإنما يعلم أن الدنيا ميدان اختبار، وأن الراحة الكاملة في الجنة. قال تعالى: **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَيْدٍ** (البلد: ٤).

ثامناً: الفرق بين

الصبر والرضا

الصبر والرضا بينهما

ارتباط وثيق، لكنهما ليسا سواء.

فالصبر هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي المحرم، والجوارح عن التصرفات المخالفة للشرع.

أما الرضا فهو اطمئنان القلب وقبوله لما قدره الله، مع حسن الظن به، ولذلك عدّه كثير من العلماء منزلة أعلى من الصبر؛ لأن كل راضٍ صابر، وليس كل صابر راضياً.

تاسعاً: ثمرات الرضا

للرضا آثار عظيمة على الفرد والمجتمع، ومن أبرزها؛ طمأنينة القلب؛ فالرضا يزيل القلق والتوتر ويمنح النفس سكينه.

حسن الظن بالله، وهو من أعظم عبادات القلوب. قوة الإيمان؛ لأن الرضا دليل على رسوخ الثقة واليقين برب العالمين.

الصبر الجميل عند الشدائد والابتلاءات.

القناعة بما قسمه الله في نفسه وجسده وماله وولده، وهذا مما يقي الإنسان من الجسد والطمع.

السعادة الحقيقية؛ لأن السعادة ليست بكثرة المال،

وإنما براحة القلب.

نيل محبة الله تعالى، كما دل عليه حديث: ”فمن رضي فله الرضا“.

حسن الخلق مع الناس، فالتعبد الراضي يكون أقل غضباً وأبعد عن الشكوى والتذمر.

خاتمة

إن الرضا عن الله تعالى، والرضا بشرعه، وبقضائه وقدره، من أعظم مقامات الإيمان وأشرف أعمال القلوب. وهو مفتاح السعادة في الدنيا، وطريق الفوز في الآخرة؛ إذ يورث صاحبه طمأنينة لا تعكرها تقلبات الحياة، ويجعله يعيش مطمئن النفس، واثقاً بربه، حسن الظن به في جميع أحواله. ومن لم يرض عاش مُنْغَصَّ الحال، مشتت الذهن، كاسف البال، ولن يأخذ من الدنيا إلا ما كتبه الله له.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الرضا به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وأن يجعلنا من عباد الراضين المرضيين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أعمال القلوب في القآه والسنة

الأنس بالله تبارك وتعالى

اعداد: / عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن من أعظم النعم التي يمن الله تعالى بها على عبده أن يفتح له باب الأنس به؛ فيصبح قلبه مطمئناً بذكر الله، راضياً بشرعه وقدره، مستبشراً بمناجاته، يحب قُربه، ويجد اللذة والفرحة في طاعته، ويأنس بالله تعالى ويشعر بالراحة في الخلوة به ومناجاته، ويجد في اللجوء إليه سَكينة لا تمنحها الدنيا بكل ما فيها.

وفرحة بمناجاته، واستراحته إلى طاعته، وثقته برحمته وتدبيره.

فليس الأنس بالله أن يعيش الإنسان بعيداً عن الناس، أو أن يترك أسباب الحياة والعمل، وإنما حقيقته أن يكون قلبه مع الله أينما كان، وأن يجد في داخله ملجأً

ما يجعله قادراً على مواجهة تقلبات الحياة بثبات ويقين ورضا.

معنى الأنس بالله تعالى

الأنس في اللغة هو زوال الوحشة، والسكون إلى الشيء، والاطمئنان إليه. والأنس بالله تعالى هو سكون القلب إليه، وطمأنينته بذكره،

والأنس بالله تعالى ليس مجرد شعور عابر يَمُزُّ بالقلب، وإنما هو منزلة إيمانية رفيعة، وثمرة من ثمار معرفة الله والإيمان به ومحبته وطاعته والرضا عنه، حتى يصبح الله تعالى أحب إلى العبد من كل ما سواه، ويجد قلبه في الإقبال عليه من السكينة والطمأنينة



ثابتاً يرجع إليه في الفرح والحزن، وفي القوة والضعف، وفي السعة والضيق.

قال الله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد: ٢٨)؛ هذه الطمأنينة من أعظم مظاهر الأُنس بالله؛ لأن القلب إذا عرف ربه، وأحسن الظن به، وأيقن برحمته وحكمته، لم تعد الدنيا قادرة على أن تستولي عليه أو تهز أركانه كلما تغيرت الأحوال.

والأُنس بالله مرتبط كذلك بمعنى القرب من الله تعالى؛ يقول سبحانه: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» (البقرة: ١٨٦). وسبق أن الإمام ابن القيم جعل هذه الآية في صدر حديثه عن منزلة الأُنس؛ لأن استحضار قُرب الله ورعايته وإحسانه يقود القلب إلى الأُنس به.

حقيقة الأُنس

بالله تبارك وتعالى

حقيقة الأُنس بالله أن يجد العبد قلبه متعلقاً بربه، وأن تكون راحته الكبرى في ذكره ومناجاته وطاعته، لا في متاع الدنيا وحده. وقد يملك الإنسان المال، والأهل، والأصدقاء، والمكانة، ومع ذلك

يشعر بوحدة داخلية عميقة؛ لأن القلب لا يملأ فراغه الحقيقي إلا بالإيمان بالله.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ففي القلب شعاعٌ لا يلمئه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشةٌ لا يزِيلها إلا الأُنس به في خلوته. وفيه حزنٌ لا يُذهبُه إلا السُّرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلقٌ لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه.». (مدارج السالكين: ١٧/٤).

ولهذا قال الله تعالى:

«وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» (طه: ١٢٤)؛

فالضيق الحقيقي ليس دائماً ضيق المال أو قلة الأسباب، وإنما قد يكون ضيق القلب وبعده عن ربه.

وفي المقابل، قد يمر المؤمن بالمحن والشدائد، لكنه يجد في قلبه من السكينة ما يجعله ثابتاً؛ لأنه يعلم أن له رباً يسمعه ويراد، وأن أمره كله بيد الله؛ ومن أبلغ ما يوضح ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً» رواد مسلم.

فالرضا بالله رباً ليس مجرد اعتقاد ذهني، وإنما هو راحة القلب إلى الله، والثقة

بحكمته، والاستسلام لأمره، والفرح بمعرفته وطاعته.

الأُنس بالله لا يعني

الفلة عن الناس

ومن المهم أن نفهم أن الأُنس بالله لا يعني الانقطاع عن المجتمع أو كراهية الناس أو ترك المسؤوليات. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صلة بالله، ومع ذلك كان يعيش بين الناس، ويخالطهم، ويقضي حوائجهم، ويزور المرضى، ويجاهد، ويعلم، ويقود الأمة. لكن قلبه كان متعلقاً بالله.

وهذه هي الصورة الصحيحة للأُنس؛ أن تكون بين الناس بجسدك، وقلبك بالله؛ تعمل، وتكسب، وتتزوج، وتربي أبناءك، وتخدم الناس، وتحمل المسؤوليات، لكنك لا تجعل شيئاً من ذلك معبوداً لقلبك أو مصدر سعادتك الوحيد.

كيف يتحقق الأُنس بالله؟

١- معرفة الله تعالى

لا يمكن أن يأنس القلب بمن لا يعرفه. وكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته وأفعاله ازداد حباً له، وثقة به، وإقبالاً عليه.

فإذا عرف أن الله هو الرحمن الرحيم، طمع في رحمته.



وإذا عرف أنه الغفور التواب، لم ييأس من مغفرته. وإذا عرف أنه اللطيف الخبير، اطمأن إلى تدبيره. وإذا عرف أنه الرزاق، لم يتعلق قلبه بالأسباب وحدها. وإذا عرف أنه الحكيم، رضي بحكمه وإن خفيت عليه الحكمة.

ولهذا فإن تدبر أسماء الله وصفاته من أعظم أبواب الأنس به؛ إذ إن معرفة هذه الأسماء تحمل العبد على معاملته بمقتضاها من المحبة والخوف والرجاء والتوكل.

٢- المحافظة على ذكر الله تعالى

الذكر هو غذاء القلب، ومن أعظم أبواب الأنس بالله؛ قال تعالى: «**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ**» (البقرة: ١٥٢)، وقال سبحانه: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**» (الأحزاب: ٤١).

والذكر لا ينبغي أن يكون مجرد ألفاظ تتحرك بها الشفاه، وإنما المقصود أن يجتمع اللسان والقلب؛ فيستشعر العبد أنه يذكر رباً يسمعه ويراه ويعلم حاله.

ومن أعظم صور الذكر: قراءة القرآن بتدبر، والاستغفار، والتسبيح، والصلاة على النبي صلى الله

عليه وسلم، والدعاء، والتفكير في نعم الله جل وعلا.

٣- حسن إقامة الصلاة والخلوة بالله تعالى

الصلاة ليست مجرد أداء فرض، وإنما هي موعد متجدد بين العبد وربّه. وفي الحديث: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**» رواه النسائي وأحمد.

ومن أعظم أبواب الأنس أن يكون للعبد أوقات يخلو فيها بربه، ولا سيما في الليل؛ حيث يهدأ الناس وتخفت الأصوات، فيقوم العبد بين يدي ربه، يصلي، ويقرأ، ويدعو، ويستغفر. وفي هذه الخلوة يتعلم القلب معنى لا يستطيع أن يتعلمه في ضجيج الحياة؛ أنه ليس وحده.

٤- الدعاء ومناجاة الله سبحانه وتعالى

من أعظم مظاهر الأنس أن يجد العبد في الدعاء باباً مفتوحاً لا يغلق؛ قال سبحانه: «**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**» (غافر: ٦٠)، والعبد المستأنس بالله لا يرى الدعاء مجرد وسيلة للحصول على مطلوب، بل يراه عبادة وقرباً ومناجاة. وقد يتأخر المطلوب، لكن القلب يريح شيئاً أعظم؛ الشعور بالقرب من الله والافتقار إليه.

٥- ترك المعاصي

المعصية من أعظم ما يفسد الأنس بالله؛ لأنها تضعف القلب، وتقطع طريق القرب، وتورث الوحشة. ولهذا فإن من أراد أن يذوق حلاوة الأنس فليجاهد نفسه على ترك الذنوب، وليبادر بالتوبة كلما زلت قدمه.

قال تعالى: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ**» (البقرة: ٢٢٢)؛ فالتوبة ليست مجرد التخلص من الذنب، بل هي عودة إلى الله، وهذه العودة نفسها باب عظيم من أبواب الأنس.

ثمرات الأنس بالله تعالى
لأنس بالله ثمرات عظيمة في حياة الإنسان، ومن أبرزها:

١- الشعور بالطمأنينة؛ فالقلب الذي يأوي إلى الله لا تستعبده المخاوف؛ لأنه يعلم أن الله معه، وأنه سبحانه أرحم به من نفسه؛ قال تعالى: «**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**» (الرعد: ٢٨).

٢- قوة مواجهة الابتلاءات؛ فالأنس بالله لا يعني أن المؤمن لا يحزن، ولكنه يعني أن الحزن لا يهدمه، وأن المصيبة لا تقطعه عن ربه؛ قال تعالى: «**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ**» (البقرة: ٢١٤).

٣- استشعار حلاوة العبادة: فالعبد الذي يأنس بالله لا يرى الصلاة عبئاً، ولا القرآن ثقلاً، ولا الذكر عادة جافة، وإنما يجد فيها غذاء قلبه وراحة نفسه.

٤- حسن الظن بالله: فكلما عرف العبد ربه ازداد ثقة برحمته وحكمته وتدابيره. قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» متفق عليه.

٥- الاستغناء عن الخلق وعدم التعلق بهم؛ وليس المقصود ألا يحتاج الإنسان إلى الناس في شؤون حياته، وإنما ألا يجعل قلوبهم مصدر قيمته وسعادته، وألا يتعلق بهم تعلقاً ينسى معه تعلقه بالله.

٦- الشعور بالأمن في سكرات الموت والقبر: قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فمن أطاع الله واتقاه وحفظ حدوده في حياته تولاه الله عند وفاته، وتوفاه على الإيمان، وثبته بالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين، ودفع عنه عذاب القبر، وأنس وحشته في تلك

الوحدة والظلمة. قال بعض السلف: إذا كان الله معك عند دخول القبر، فلا بأس عليك ولا وحشة. ورئي بعض العلماء الصالحين في النوم بعد موته، فسئل عن حاله فقال: «يؤنسني ربي عز وجل». فمن كان الله أنيسه في خلواته في الدنيا، فإنه يرجو أن يكون أنيسه في ظلمات اللحد إذا فارق الدنيا وتخلّى عنها» (نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس ١٢٠/٣).

كيف يصل العبد إلى

منزلة الأنس بالله تعالى؟

الوصول إلى الأنس بالله لا يتأتى عبر خطوة واحدة، وإنما هو طريق طويل من المجاهدة والتدرج. يبدأ الطريق بتصحيح التوحيد، ثم معرفة الله تعالى، ثم المحافظة على الفرائض، ثم الاكتثار من النوافل والذكر، ثم ترك الذنوب، ثم دوام التوبة، ثم تدبر القرآن، ثم محاسبة النفس، ثم الصبر على الطريق.

والأنس بالله تعالى هو أن يجد القلب سعادته الحقيقية عند ربه؛ فإذا ضاقت به الدنيا لجأ إليه،

وإذا أقبلت عليه النعم شكره، وإذا نزل به البلاء صبر، وإذا أذنب تاب، وإذا خلا بربه استراح، وإذا ذكره اطمأن.

وليس الأنس أن تخلو الحياة من المشكلات، وإنما أن يسكن الله قلبك وسط المشكلات. وليس أن تزول الأحزان، وإنما أن تجد في القرب من الله ما يمنع الحزن من تحطيمك. وليس أن تمتلك الدنيا كلها، وإنما ألا تمتلك الدنيا قلبك.

ومن أراد هذه المنزلة فليبدأ من حيث بدأ الصالحون؛ معرفة بالله، وصدق في التوبة، ومحافظة على الفرائض، واكثار من الذكر، وصحبة للقرآن، وخلوة بالمناجاة، ومجاهدة للنفس، وترك للذنوب، وحسن ظن بالله.

وحينئذ يجد العبد أن أعظم ما كان يبحث عنه في الدنيا لم يكن مآلاً ولا جأهاً ولا كثرة أصدقاء، وإنما كان قلباً يعرف ربه، ويأنس به، ويطمئن إليه.

نسأل الله أن يرزقنا الأنس به والاطمئنان بذكره وحسن التوكل عليه، والحمد لله رب العالمين.